في موكب العظماء للناشئين

قاهر الروم

تأليف

نشأت المصري

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد

قَاهِرُ الرُّومِ
السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد
العنوان :٢٣ ش سكة المدينة ناهيا - إمبابة - جيزة
تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢
رقم الإيداع : ٨٣٢٩ / ٩٩
الترقيم الدولي : 7 - 40 - 5819 - 977
رسوم : ماهر عبدالقادر
خطوط : مصطفى عمرى
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٠ هـ - يونيو ١٩٩٩م

الفصلُ الأوَّلُ

ميلادُ الْبَطَلِ

قَمَرٌ بلونِ الْقَمْحِ

فى لَيْلَة مُبَارَكَة من الزَّمان - لَيْلَة السَّادسِ والْعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ - احْتَفَلَ قَصْرُ السُّلْطَانِ (مُرَاد الثَّانى) بمَناسَبَتَيْنِ هُمَا : ذكْرَى لَيْلة الإِسْرَاء والمعْرَاجِ ، وقُدُوم طفْلٍ جَديدٍ إلى هَذَا الْعَالَمِ، وتَزَيَّنَ القَصْرُ بالأَضْواءِ ومَظَاهِرِ الْفَرَحِ وأُقيمَتِ الْوَلائمُ .

ولَمَسَ السُّلْطَانُ وَجْهَ وَليده الجديد بأَطْرَاف أَصَابعِهِ فى حَنَانٍ، وقَالَ لزَوْجَته الأميرة فى بَهْجَةٍ :

- إنَّ وَجْهَهُ يكَادُ يُضىءُ ، وَجْهَ قَمَرٍ بلونِ الْقَمْحِ ، إنَّهُ طِفْلٌ مُبَارَكٌ بإذنِ الله ، رَزَقَنا اللهُ به فى لَيْلَةٍ مَجيدَةٍ وَالْحمدُ لله .

فَقَالَت الزَّوْجَةُ :

- مَا رَأْيُكَ أَنْ نُسَمِّيَهُ مُحَمَّداً ؟ .

أَجَابَ السُّلطانُ مُوافقاً دُونَ تَفْكيرٍ :

- هُوَ أَفْضَلُ الأَسْماءِ لابْنٍ فاضلٍ بمشيئَة الخالقِ الوَهَّاب .

لَكنْ هَلْ كَانَ (مُرَادُ الثَّانى) يَتصَوَّرُ عنْدَئذ أَنَّ هذا الطِّفْلَ سَيَكُونُ بَطَلاً عظيماً، وسيُصْبِحُ أَقْوَى وأَهَمَّ رَجُلٍ فى العَالَمِ فى عَصْرِه؟

إنّ الْعُظماءَ والأَبْطَالَ لا يُصنَعُونَ فى يَوْمٍ ولَيْلَةٍ .

فكَيْفَ امْتَلَكَ « مُحَمَّدٌ » قُوَّةَ الشَّخصيَّة والذَّكاء ، ومَوْهبَةَ الْقيادة فى السِّلْمِ والحربِ ، وَالنُّبُوغِ فى الْعلمِ والأَدَبِ ، والتَّأَلُّقِ فى الْفُرُوسيَّة وتَأَدَّبَ بالأخلاق الإسْلاميَّة ؟! .

وكَيْفَ اسْتَطَاعَ « مُحمَّدٌ » وقَدْ عُرِفَ بعد ذلك بـ « مُحَمَّد الفَاتح » أَوْ « مُحَمَّد الثَّانى » إقامَةَ دَوْلة عُظْمَى قَويَّة يَخْشَاهَا الأَعْدَاءُ فى كُلِّ مكَانٍ ، حَتَّى أَصْبَحَ « مُحَمَّدٌ الفاتِحُ » الرَّجُلَ الأَوَّلَ فى الشّرْقِ والغَرْبِ دُونَ مُنازِعٍ ؟ .

وكَيْفَ جَمَعَ حَوْلَهُ قُلُوبَ الفُرْسان ، وأَقْلامَ الشُّعَرَاء والأُدَباء، وَمَشَاعِرِ الكبار والبُسطَاء ، وكَيْفَ كَانَ فى مَجَالسِ الأَدَب والعلْمِ والدِّينِ رُوحاً شَفَّافَةً ، وفى مَيَادينِ القِتَال فارساً لا يُقْهَرُ وقُوَّةً جبَّارَةً تَصنَعُ النَّصرَ وَالْمجدَ ؟ .

كَانَ مَوْلِدُ « مُحَمَّد الفاتح » فى مَدينَة أَدرْنَةَ - فى آسيا الصُّغْرَى - عَاصمَة الدَّوْلَة الْعُثْمَانيَّة الكَبيرَة عام (٨٣٣) هجرية - (١٤٢٩) ميلادية ، وأَبُوهُ (مرادٌ الثَّانى) سُلْطَانُ هَذه الدّوْلَة وفارسٌ منْ أَعْظَم الفُرْسَان .

ومُنْذُ صغَره وهُوَ يَسْمَعُ عَنْ بُطُولات إثْرَ بُطُولات ، وعَن انْتصارَات تَعْقُبُهَا انْتصَارَاتٌ ، وقُبَيْلَ نَوْمه يُنْصتُ لحكَايَات أَبيه السُّلْطان لأُمِّه الأَميرَة عَنْ قتاله ضدَّ الأَعْدَاء ، وكَيْفَ بَارزَ شُجْعانَهم ، حتَّى فَرُّوا منْ أَمَامه ، أَوْ سَقَطُوا عَلَى الأَرْض لا حَوْلَ لَهُمْ ولا قُوَّةَ ، وهُمْ يَطْلُبونَ منْهُ الصَّفْحَ والْعَفْوَ ، ولا يَنْسَى « مُحَمَّدٌ الفاتحُ » تلْكَ الفَرْحَةَ الغامرةَ فى صَوْت أَبيه السُّلْطَان (مُراد الثَّانى) ، وهُوَ يَحْكى عَنْ فَتْح مَدينة جَديدَة وَضَمِّها إلى بلاد المسْلمينَ ، ولَمْ يكُن القَصْرُ ينامُ هَذه اللَّيالىَ السَّعيدَةَ ، وإنَّما كانَ يَسْهَرُ حَتَّى صَلاة الْفَجْر . وكَمْ كان «الْفَاتحُ » يَشْعُرُ بالْفَخْر وَالاعْتزاز عنْدَما يَسْرُدُ والدُهُ أَخْبارَ أَهَالى هذه البلاد فى ظلِّ الحكَّام المسلمينَ الْجُدُد حَيْثُ الرَّخَاءُ وَالْعَدْلُ؛ فَفَضَّلَ هؤلاء الأَهَالى الْحُكَّامَ الْمُسْلمينَ عَلَى حُكَّامهم الْمَسيحيِّينَ الَّذين يَدينُونَ بدينهم .

وَأَغْمَضَ « الفاتحُ » عَيْنَيْه - وهُوَ يَقظٌ - وَتصَوَّرَ نَفْسَهُ فَوْقَ جَواد عَربىٍّ لا مَثيلَ له ، وفى يَده رُمْحُهُ ، وهُوَ يَشُقُّ صُفُوفَ الأَعْدَاء الَّذينَ يَسْقُطُونَ منْ حَوْله أَوْ يَفرُّونَ بَعيداً عَنْهُ رُعْبًا وَخَوْفًا، وهُوَ يَحْملُ بيَده الأُخْرَى رَايةً خَفَّاقَةً عَاليةً مكْتوبٌ عليها: اللهُ أكْبَرُ ، وارْتَفَعَ صَوْتُ الفاتح دُونَ أَنْ يَدْرِىَ وهُوَ يَقُولُ : «اللهُ أكبرُ » ، فَسَمعَتْهُ وَالدَتُهُ وقَالَتْ لَهُ باسمَةً :

- كَمْ مَعْرَكَةً انْتَصَرْتَ فيها حتَّى الآنَ يا صَغيرِى . . . يَا قَمرًا بِلَوْنِ الْقَمْحِ .

فَرَدَّ عَلَيْها « مُحَمَّدٌ الفاتِحُ » وكَأَنَّهُ لَمْ يُفِقْ بَعْدُ منْ حُلْمه :

- قُولِى يا بَطَلاً بِلونِ الْقَمْحِ ، وَغَدًا تَرَيْنَ يَا أُمَّاهُ .

لَقَدْ حَرِصَ (مرادٌ الثَّانى) عَلَى بنَاء عَقْلِ ابنه « الفاتحِ » وجسْمه ورُوحه وأخْلاقه؛ فاخْتَارَ لَهُ أفْضَلَ عُلَمَاء الْعَصْرِ وأُدَبائه وفُرْسانه ، ليَتَعَلَّمَ عَلَى أَيْديهم وفى مُقَدِّمَتِهِم الشَّيْخُ (أَحْمَدُ الكُوارَنىُّ) الَّذى تَعَلَّم فى القاهرَة .

وأَدْرَكَ الأَبُ الْفارسُ أَنَّ التَّرَفَ يُفْسدُ الإنْسَانَ ، وكانَتْ حَيَاتُهُ هُوَ بَعيدةً عَنِ التَّرفِ والإِسْرافِ قَريبَةً إلى الزُّهْدِ ، وشَبَّ ابْنُهُ

«الفاتحُ » عَلَى هذه الأَخْلاق ، يَعيشُ حَيَاةً بَسيطةً ، ويَقْضى مُعْظَمَ وَقْته فى الْقِراءَة والتَّدريب على فُنُون الْحَرْب والصَّيْد واستْعْمال السِّلاحِ بمهَارة ، وهُوَ دَائمُ الصَّلاة فى الْمَسْجد دائمُ الحمْد لله، سَرِيعُ البَديهَةً يَقظُ الْعَقْلِ عَميقُ النَّظَرِ، حَدَّدَ هَدَفَهُ الأوَّلَ وهُوَ نَشْرُ الإسْلام لِيَسُودَ العَالَمَ السَّلامُ ، وَحمايةُ المُسْلمينَ فى كُلِّ مَكَان منْ هَجَمات الأعْداء المُحيطينَ بِهِمْ منْ جُنُود الإمْبرَاطُوريَّة الرُّومَانيَّة (البيزَنْطيَّة) ، ورَاحَ «الفاتحُ » يَجْمَعُ كُلَّ المعلومات الْمُمْكنَةَ عَنْ أَعْدائه – فَالتَّعَرُّفُ عَلَى العَدُوِّ هُوَ أوَّلُ خُطْوَة لهَزيمته – ، وأَجَادَ « الفَاتحُ » التَّحَدُّثَ بِالْعديد من اللُّغَات مثْلِ اللُّغَات الفارسيَّة والإغْريقيَّة والإيطاليَّة ، ولأنَّ التَّاريخَ مَلِيءٌ بالدُّروسِ والْعِبَرِ قَرَأَ فيه طَويلاً، وَطَالَعَ سيرَ الأَبطال فى الشَّرْق والْغَرب قديمًا وحديثًا ، وأُعْجبَ إعجاباً خاصا بشَخْصيَّة الإسْكَنْدَر الأكْبَر الْمَقْدُونيِّ ، وَوَجَدَ تَشَابُهًا بَيْنَ شَخْصيَّته وَشَخْصيَّة الإسْكَنْدَر ، مثْلَ قُوَّة الإرَادَة والتَفْكير العَميق، واتِّخَاذ الْقَرَار الحاسم وسُرْعَة تَنْفيذه ، والطُّمُوحِ بلا حُدُود ، وَالْقُدْرَة على كَتْم الأَسْرار .

* * *

الْحُلْمُ الأَكْبَرُ

كَانَت الْقُسْطَنْطِينيةُ فى عَهْد « الفَاتِح » وَقَبْلَهُ بعدَّة قُرُون عَاصِمَةَ الدَّولَة الْبيزِنْطِيَّة (عَاصِمَةَ الرُّومِ) ، وَعَاصِمَةَ الْمَسيحيَّةِ الأُولَى - وكَانتْ مَصْدرًا دَائمًا للعُدوان عَلَى بِلاد المسلمينَ .

وَفى ذَلكَ الْوقت ، كَانَت الدَّوْلَةُ البيزنْطيَّةُ غَارِقَةً فى المؤامَرات الدَّاخليَّة ، وَالْفتَنِ ، والدَّسَائس ، وانْتَشَرَت الرِّشْوَةُ والفَسَادُ ؛ وَهَذا يَحْدثُ دَائمًا فِى وُجُودِ حَاكِم مستبدٍ .

منْ نَاحية أُخْرَى اشْتَبَكَت الإمبراطُوريَّةُ البيزنطيَّةُ فى صرَاعات وَحُرُوب مَعَ دُوَل عَديدة منْ أُوربَّا وَغَيرهَا ، كَمَا سَبَقَ أَنْ تَعرَّضَتْ لِغَزْوٍ صَلَيبىٍّ منَ الدُّول الأوربيَّة فِى أَوائلِ الْقرنِ الثَّالث عَشرَ الميلادِىِّ - وَقَاسَى أَهْلُ القُسْطَنْطِينيَّة منْ ظُلم الحُكَّام الصَّليبيينَ فى الْوَقْت الَّذى سَمعُوا فيه عَنْ سَمَاحَة الإِسْلام ؛ وَلَمسُوا تَمتُّعَ شُعوبِ الْعَالَمِ الإِسْلامِىِّ بِالعَدْلِ والْحُرِّيَّة والرَّخَاء واحْترامِ الإِنْسانِ .

وكَانَ الصِّراعُ شَديدًا بَيْنَ كَنيسَة روما الْغَرْبيَّة - بِرئاسَة الْبابا -

وكَنيسَة الْقُسْطنطينيَّة - الشَّرقيَّة - برئاسَة الْبَطْريرْك - ، وشَملَ الصِّراعُ والتَّعصُّبُ الدِّينيُّ الشُّعوبَ على الجانبَيْنِ ، فالشَّعْبُ البيزنطيُّ (الرُّومُ) كان مُتَعَصِّبًا للمذْهبِ المسيحيِّ الأَرْثُوذكسيِّ، ويَرَى الرُّوْمُ أَنَّ أَصْحابَ الْمَذْهَبِ المسيحيِّ الْكاثُوليكيِّ فى (أوربا) من أهْلِ الضَّلال والكُفْر ، ولا يَجُوزُ التَّعاوُنُ مَعَهُم خَاصَّةً وأَنَّهُم شَغَلوا أنفُسَهُم بالْجَدَلِ الدِّينيِّ الطَّويلِ .

أمَّا أَهْلُ (أوربا) (التَّابعونَ للْكَنيسَة الْغَرْبيَّة) فَهُمْ يَنْظُرُونَ للْبيزنطِّيينَ (الرُّومِ) عَلَى أَنَّهم مُلْحدُونَ وكُفَّارٌ خارِجُونَ عَلَى الدِّينِ الصَّحيحِ ، ويَجبُ قتَالُهُم كالْمُسْلمينَ تمامًا .

لَكنَّ هؤُلاء جَميعًا عنْدما يَشْعُرونَ بتَحَرُّك الْمُسْلمينَ وَقُوَّتهم يَتَّحدُونَ فى جَبْهة واحدة ، وَرَغْمَ كُلِّ ذلك فَإنَّ الْقُسْطَنْطينيَّةَ مَدينَةٌ ذَاتُ أَسْوارٍ وحُصُونٍ عَظيمَة يَصْعُبُ التَّغلبُ عَلَيْها فَهىَ تَقَعُ فى مكانٍ مَنيعٍ وتُحيطُ بها الحُصُونُ ، وفيها يَلْتَقى الشَّرْقُ والْغَرْبُ ، وقد فَشلَ فى فَتْحها المسْلمُونَ منَ الْفُرْسِ والْعَرَب والتُّرك قَبْلَ «محمَّد الفاتِحِ » ، وميناؤُها فى الْقَرْنِ الذَّهَبيِّ يُعَدُّ حصْنًا مائيا لها .

وتَقَعُ هَذه المدينَةُ الجَميلَةُ عَلَى سَبْعة تِلالٍ تُطلُّ على شَوَاطئ

(أوربا وآسيا) وتُعْتَبَرُ الْجَنَاحَ الْقَوِىَّ للْعالَمِ المسيحِىِّ مَعَ مَدينَةِ (روما) ، وقَالَ (نابليونُ) عَنِ الْقُسْطَنْطِينيَّة :

« إنَّهَا مفْتَاحُ الْعَالَمِ وَمَنْ يَسْتَوْلى علَيْها يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَى العَالَمِ أَجْمَع . . إنَّها تُسَاوِى إمْبراطوريَّةً » .

وقَدْ تَمَّ حصَارُ هَذه المدينَة الرَّائعَة تسْعَةً وعشْرينَ مَرَّةً مُنْذُ تَأْسيسهَا ، وتَطَلَّعَ الْمُسْلمُونَ إلَى فَتْحهَا فى عُصُورٍ مُخْتَلفَة ، وكَانَ أَوَّلَ مَنْ حَاصرَهَا منَ الْعَرَب (يَزيدُ بْنُ مُعَاوية) وتَحْتَ أَسْوَارِ هذه المدينَة استُشْهدَ (أَبو أَيُّوبِ الأَنْصَارِىُّ) الصَّحابِىُّ الْمَشهُورُ.

وتَمُرُّ الأَعْوَامُ والْقُرونُ . . .

ويُحقِّقُ الْعُثْمانيُّونَ (الأَتْراكُ) إنْجَازًا منْ أَعْظَمِ الإنْجَازات فى التَّاريخِ الإسلامىِّ ، وهُوَ فَتْحُ القُسْطَنْطينيَّة عَلَى يَد « مُحمَّد الْفَاتِح». وكَانَ فَتْحُ الْقُسْطَنْطينيَّة هُوَ حُلْمَهُ الأَكْبَرَ وحُلْمَ أَجْداده.

فَمَاذَا فَعَلَ « مُحَمَّدٌ الْفَاتحُ » ؟! .

وَمَنْ هُمُ الْعُثْمانيُّونَ ؟ وَما هُوَ أصْلُ حكَايَتهِم ؟ تِلْكَ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ مُثِيرَةٌ .

* * *

الْفَصْلُ الثَّانِى

الطَّرِيقُ إِلَى الْمَجْدِ

بِنَاءُ أُمَّةٍ

مُنْذُ بِدَايَةِ الْقَرْنِ الثَّالث عَشرَ الميلادىِّ - أَىْ مُنْذُ نَحْوِ سَبْعَةِ قُرون - بَدَأَ المغُولُ يكْتَسِحُونَ دُوَلاً كثيرَةً مِنَ الْعَالَمِ ، فَدَمَّرُوهَا وأفْسَدُوا فيها فَسادًا كَبيرًا عَلَى يَدِ جَنْكيزخان، ومَنْ جَاءَ بَعْدَهُ.

وَقَدْ عَانَى المسْلمُونَ - عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ - منْ حقْد المغُول ووحْشيَّتهم ، وكانَ اسْتيلاءُ هُولَاكُو - حفيد جَنْكيزخَان وجُنُودُهُ عَلَى بَغْدَادَ مَأْساةً كَبيرَةً . فَقَدْ كانَتْ مَدينَةُ بَغْدَادَ عَاصِمَةً للإسْلامِ فى ذَلكَ الْوَقْتِ ، فَخَرَّبوها وقَضَوْا بِذلكَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسيَّةِ .

وفى مكَان آخَرَ منَ الْعَالَمِ - فى قَارَّةِ آسيا - كَانَ هُنَاكَ شَعْبٌ مُسْلِمٌ يُقَاوِمُ المغولَ كَذَلِكَ ، ويُقَوِّى وُجُودَهُ ، ويُوَسِّعُ

مُلْكَهُ، ويَصْنَعُ أَمْجادًا عَظِيمَةً ، وهَؤُلاءِ هُمُ الأَتْراكُ الْعُثْمانيُّونَ.

وتَرْجِعُ كَلِمَةُ الْعُثْمانيين إلى أَوَّلِ حَاكِمٍ لَهُم وهُوَ (عُثْمانُ بْنُ أرْطُغْرل) . وقَبْلَ (عُثْمانَ) عَانَى جَدُّهُ وأَبُوهُ من جُيُوشِ المغُولِ الْهَمَجِيَّةِ ، وأَخيرًا اسْتَقَرَّ الأَتْراكُ الْعُثْمانيُّونَ فى الإمارات التُّرْكيَّةِ فى آسيا الصُّغْرَى تَحْتَ قِيادَةِ السُّلْطان (عُثْمان) .

واسْتَطَاعَ السُّلْطانُ (عثمانُ) أَنْ يَنْشُرَ الإِسْلامَ فى بلاد جَديدَة اسْتَوْلَى عَلَيها مِنَ الإمْبراطُوريَّة البيزنطيَّة (الرُّوم) ، ووَصَلَتْ دَوْلَتُهُ إلى الْبَحْرِ الأَسْوَدِ ، ودَخَلَتْ فى الإِسْلامِ شُعُوبٌ وجِنْسيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ من (آسيا وأُوربَّا) ، وصَارَتْ هذه الشُّعوبُ شَعْبًا واحدًا .

وعَلَى الْعِلْمِ والأَخْلاقِ قَامَتْ دَوْلَةٌ قَوِيَّةٌ ، وتابَعَ أَبْناءُ (عُثْمانَ) وأَحْفادُهُ الانْتِصارات ، وضَمُّوا إِلَيْهِم (صِرْبِيَا وبلغاريا) وأَجْزَاءً مِنْ (أَلْبَانيا) ، وعَطَّلَهم قليلاً صراعُ بَعْضِ هؤلاء الأَبْناء عَلَى الحكْمِ ، وقيامِ الحرْبِ بَيْنهُم ، ورَاحَ الأَعْداءُ مِنَ الرُّومِ والتَّتار يُفْسِدُونَ بَيْنَ هَؤُلاء الإِخْوَة ، لكنِ الدَّوْلَةَ الْعُثْمانيَّةَ عَادَتْ إِلَى وَحْدَتِهَا سَرِيعًا وَاخْتَفَتْ هَذِهِ الصِّرَاعَاتُ .

* * *

فِى الرَّابعَة عَشْرَةَ

حِينَ وَصَلَ الْحُكْمُ إلَى (مُرَاد الثَّانى) (وَالد محمَّد الفاتح) كانَت الدَّوْلَةُ الْعُثْمانيَّةُ (التُّرْكيةُ) قَدْ بَدأَتْ تَسْتَردُّ قُوّتَها وَهَيْبَتهَا، - كان ذَلكَ عَامَ (١٤٢١) ميلادية - (٨٢٤) هجرية - ، وكَانَ عُمْرُ (مُرَاد الثَّانى) آنَذَاكَ ثمانيةَ عَشَرَ عامًا ، وكَانَ (مُرَادُ الثَّانى حَاكمًا قَويًا يَتَحلَّى بالصَّبْر الشَّديد والتَّفَاؤُل ، خاصةً حينَ شَارَكَ فى مَعَاركَ كَثيرَة ، وَذَاقَ حَلاوَةَ النَّصْر كَمَا ذَاقَ مَرَارَةَ الْهَزِيمَة ، لَكنَّهُ حَوَّلَ الْكَثيرَ منَ الْهَزَائم إلى انْتصَارات بالحكْمَة والسِّيَاسَة والقُوَّة معًا ، وحَاصرَ القُسْطَنْطينيَّةَ زمَنًا .

وحَدَثَ تَغْيِيرٌ كَبيرٌ فى حَيَاته عنْدَمَا مَاتَ وَلدُهُ الأَكْبَرُ « عَلاءُ الدِّين » حَيْثُ زَهَدَ الدُّنيا والْحُكْمَ ، وعَقَدَ أَكْثَرَ منْ هُدْنَة مَعَ الأَعْداء ليَبْدأَ عُزْلَتَهُ . . . وتَنَازَلَ عَن السُّلْطَة لابْنه « مُحَمَّد الفَاتح » سنة (١٤٤٤) ميلادية - (٨٤٨) هجرية ، وكَانَ «الفَاتحُ » فى الرَّابعَة عَشْرَةَ منْ عُمْره !! وَاسْتَدْعَى الأَبُ عَدَدًا من خُبَراء السِّيَاسَة والْعِلْم والحَرْب ورجال الدِّين ، وأَمَرَهُم

بِمُتَابَعَةِ تَثْقِيفِ وتَوْجِيهِ ابْنِهِ « الْفَاتِحِ » ، ثُمَّ انْعَزَلَ فى مُقَاطَعَةِ (مغنيسيا) .

وطَمِعَ الأعْدَاءُ فى ضَرْبِ الْعُثْمانيِّين بعْدَ اعْتزَالِ (مُرادٍ الثَّانى)؛ فَنَقَضُوا مُعَاهَدَاتِهم ، واتَّفَقُوا عَلَى خِيانَةِ الْعَهْدِ بتَشْجِيعٍ من الْبابَا والبطرْيرك وكبارِ رِجَالِ الدِّينِ فى الإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ مِنْ (روما) إلَى الْقُسْطَنْطِينيَّةِ .

وَتحَرَّكَتْ جُيُوشُ كُلٍّ من الْمَجَرِ والْقُسطَنْطِينيَّةِ وانْجلْترا وفَرَنْسَا وَميلان وفلورنسا والْبُنْدُقيَّة وجنْوَا لِتَدْميرِ قُوَّاتِ (مُرادِ الثَّانى) . وأَحْرَقَتْ هَذه الْحَمْلَةُ الصَّلِيبيَّةُ عَدَدًا مِنْ مُدُنِ المسْلمينَ ، وأَلْقَوْا بِالأَسْرَى مِنْ أَعَالِى الجبالِ تَحْتَ قِيادة السَّفَّاحِ الْمَجَرِىِّ «هونياد» .

وَعَلَى الْفَوْرِ عَادَ (مُرادٌ الثَّانى) إلى عاصمته « أدرنة » ، وقَادَ حَرْبَ المقاومَةِ بِنَفْسه ، وحَارَبَ مَعَ الجنودِ وبَيْنَهم ، وقَتَلَ برُمْحِه « لادسلاس » مَلِكَ المجرِ وانْتَصَرَ عَلَى الصَّلِيبيينَ فَهَرَبوا صاغِرِينَ .

وَبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ (مُرادٌ الثَّانى) عَلَى أَحْوالِ بِلادِهِ رَجَعَ إلى

عُزْلته فى (مغنيسيا) ، وعَادَ الابْنُ « الفاتِحُ » إلى الحكْمِ مَرَّةً ثانيةً ، ولأنَّ « الفَاتحَ » كانَ لا يزالُ حَديثَ السِّنِّ ، وحَديثَ الْعَهدِ بالسُّلطةِ والحُكْمِ ، وَقَعَتْ أَحْداثُ شَغَب فى قِطَاعٍ مِنَ الجَيْشِ وجُنودِ الحَرَسِ (الإنكشارية) ، ولَمْ يَتَمكَّنِ « الفاتحُ » مِنْ تَهْدئَة الموْقف سريعًا فَأَرْسَلَ (خَليلُ باشا) الْوزيرُ الأَوَّلُ رِسالةً إلى الأَبِ جَاءَ فيها : « إنَّ هذا السُّلْطانَ ما زالَ صَغيرًا فى السِّـنِّ ، ولَيْسَتْ لَهُ التَّجْرِبَةُ الكَافيةُ فى الأُمورِ الحرْبيَّة خاصَّةً، ومِمَّا يَزيدُ الحالَةَ سُوءًا أَنَّهُ لا يَسْتَمعُ لغَيْرِ نَفْسه ، ويَرْفُضُ النَّصَائحَ لِدَرَجَةِ أَنَّكَ إذا لَمْ تَرْجعْ إلى الْعَرْشِ سَيُصْبحُ شعْبُنَا فى خَطَرٍ عظيم » .

لَقَدْ كَانَ (خَليل باشا) يَحْقدُ عَلَى السُّلْطانِ الشَّابِّ «الفاتِحِ» ويَغارُ مِنْهُ فَادَّعَى عَلَيْه ما لَيْسَ فيه لِيَتَخلَّصَ منه .

وقرَّرَ الأَبُ الْعَوْدَةَ مَرَّةً أُخرَى ؛ لِيُسَيْطِرَ عَلَى هَذه الجمَاعَاتِ الثَّائرَةِ الغاضبَةِ الَّتى أثَارَها (خَليل باشا) بمكْرِه وَدهائه ، وأَشْفَقَ الأبُ من إبْعاد ابْنه « الفَاتِحِ » للمَرَّةِ الثَّانيَةِ ؛ فَأَمَرَ وزيرَهُ الأَوَّلَ (خليل باشا) بِاصْطِحَابِ « الْفَاتِحِ » فى رِحْلَةِ صَيْدٍ قَبْلَ

أَنْ يَحْضُرَ من عُزْلَته ، وأَثْنَاءَ رِحْلَة الصَّيْد عَادَ الأَبُ إلى السُّلْطَة وأَخْضَعَ الثَّائرينَ ، وحينَ رَجَعَ الابْنُ أخْبَرَه أبُوهُ بتَعْيينه حاكمًا عَلَى (مغنيسيا) ، فَأَذْعَنَ لأَمْرِ أَبيه طَاعَةً وحُبا لَهُ ، ولَمْ تَهْتَزَّ ثقةُ الفَاتحِ بنَفْسه ، فَقَدْ كَانَ قَوِيَّ الشَّخصيَّة لا يَيْأَسُ ولا تُرْهبُهُ الأَحْداثُ - لَقَدْ كَانَ يَحْتَاجُ إلى فُرْصَة أَكْبَرَ ليُنْهِيَ هذا التَّمَرُّدَ ، واسْتَعَدَّ « الفاتحُ» لجَوْلَة أُخْرَى ، وراحَ يُراقبُ ويَتَعَلَّمُ من خبْرَة أبيه في إدَارَة الْحُكْمِ ، ومنْ أَكْبرِ الدُّرُوسِ الَّتي تَعَلَّمَها ألا يَأْمَنَ لعَدُوٍّ مهْمَا أَحْسَنَ إلَيْه ، وتَأَلَّمَ كَثيرًا لما شاهَدَهُ منْ خيانَة الأَمير (اسْكَنْدَر الأَلْبَانيِّ) ، لَقَدْ ربَّاهُ (مُرادٌ الثَّاني) وعَلَّمَهُ حَتَّى صَارَ فَارِسًا بَارِعًا ومَنَحَهُ لَقَبَ الأَمير - وكَانَ (اسْكَنْدرُ) في طُفُولَته مُجَرَّدَ أَسيرٍ منَ الأَسْرَى الأَلْبَانيِّينَ ، بَعْدَ هَزيمَة أَبيه حَاكمِ (أَلْبَانيا الشَّمالية) - وبَدَلاً منْ أَنْ يَقْتُلَهُ (مرادٌ الثَّاني) ربَّاهُ وأَكْرَمَهُ في قَصْرِه . فَمَاذا كَانَ جَزَاءُ السُّلْطَانِ (مُرادٍ الثَّاني) الَّذي أَحْسَنَ إلَيه ؟ .

طَمعَ الأَميرُ (اسْكَنْدرُ) في حُكْمِ بلاد أَبيه ، ولَجأَ إلى الخِيانَة والْخَديعة ، فَقَدَّمَ لحَاكمِ (أَلْبَانْيا) أَمرًا مزورًّا من

(مُرَاد الثَّانى) بمُغَادَرَة البلاد ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِحُكْمِ (ألبانيا) ، وَانْفَصَلَ عَنِ الدَّوْلَة الْعُثْمانيَّة ، وَحَصُلَ عَلَى مَعُونات عَسْكرية كَبِيرة من (ألمانيا وروسيا وأسبانيا) وغَيْرِها ، وحَارَبَ القُوَّاتِ العُثْمانِيَّةَ وانْتَصرَ عَلَيْها فى أَكْثَرَ من مَعْرَكة .

* * *

أيْنَ الْقَائدُ الْجبَّارُ ؟!

حَضَرَ « محمدٌ الفاتِحُ » مَعَ أَبيهِ مَعْرَكةً ظَافِرةً ضِدَّ جَيْشِ الْمَجَرِ فى سَهْلِ « قوصوه » عام (١٤٨٨) ميلادية - (٨٥٢) هجرية ، وكَانَتْ تِلْكَ هِىَ أَوَّلُ حَرْب يَشْتَرِكُ فيها الابْنُ - بحصَانه جمبولات - وفى أثْنَاء قتاله ضدَّ قُوَّات الْعَدُوِّ وهُوَ عَلَى جَوَاده يَضْربُ بسَيْفه هُنا وهُنَاكَ ، وبَعْدَ أَنْ أَثَارَ الخوْفَ والرُّعْبَ فى صُفُوف الأَعْدَاء حتَّى فَرَّ بَعْضُهُم ، رَاحَ « الفَاتِحُ » يَبْحَثُ عن « هوينياد » المقَاتِلِ الشَّهِيرِ الشَّرِسِ ، وقائد قُوَّات الْمَجَرِ ليُقَاتلَهُ برَغْمِ ما سَمِعَه عَنْهُ مِنْ مَهَارَة وقُوَّة ومكْرٍ ، لَكِنَّ «الفاتِحَ» لَمْ يَجِدْ لـ « هوينياد » أَثَرًا ، فَقَدْ فرَّ هذَا القائدُ المجَرِىُّ منَ الميدَان عِنْدَمَا شَعَرَ بِانْهِيارِ جَيْشه .

وَبعْدَ أَنْ تَبَادَلَ الفاتِحُ (وَهُوَ دُونَ الْعشْرينَ مِنْ عُمُرِه) التَّهْنِئَةَ بالنَّصْرِ مع أبيهِ وكِبارِ الْقَادَةِ ، سَأَلَ أَبَاهُ :

- هَلْ أعْجبَكَ بَلائِى فى المعْرَكَةِ أَيُّهَا الفَارِسُ الْكَبيرُ والحاكِمُ الْعظيمُ ؟ قَالَ الأَبُ وهُوَ يَشْعُرُ بالْفَخْرِ والارْتِيَاحِ :

- لَقَد اطْمَأَنَّ قَلْبى أَيُّها الْفارِسُ الهُمَامُ الْقديرُ ، إنَّك تُحْسِنُ اخْتِيَارَ خُطَّةِ الْهُجُومِ عَلَى عَدُوِّكَ ، وتَتَحَرَّكُ فى الميدَانِ بِدَافِعٍ مِنْ حُبٍّ الجهادِ ، وأَنْتَ فَارِسُ الْغَدِ بلا جِدَالٍ .

- أيكُونُ لىَ يَا أَبِى شَرَفُ الاشْتِرَاكِ فى المعارِكِ الْمُقْبلَةِ ؟! .

- هَذَا ما كُنْتُ أُفَكِّرُ فيه ، وأَميلُ إليه .

- لَعَلَّنِى أكُونُ كَمَا تَرْجُوهُ مِنِّى .

- بإذْنِ اللهِ تكُونُ أَكْبَرَ مما تَرَاهُ ، نَفْسكَ ، وأَرْوَعَ مما نَتَوَقَّعُهُ مِنْكَ .

وتَحرَّكَ « الفَاتِحُ » إلى يَدِ أبيه فتَنَاولَهَا وقبَّلها حبًّا وتَقْديرًا واحترامًا وشُكرًا ؛ فَدَعَا له أَبُوهُ وقبَّلَهُ فى جَبِينِه .

* * *

رِسَالَةٌ هَامَّةٌ

بَعْدَ نَجَاحِ « الفاتحِ » فى أوَّلِ مَعْرَكَةٍ قَاتَلَ فيها ، غَادَرَ الْعَاصِمَةَ (أدرنة) إلى (مغنيسيا) ، يُتَابِعُ أَحْوالَ النَّاسِ ، وكَانَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بالْعَدلِ ، ويُنْصِفُ المظلومَ ، ولا تَأْخُذُهُ الشَّفَقَةُ بالظَّالمِ ، وواصَلَ رِعايَتَهُ لمَجَالسِ الأَدَبِ والأُدَبَاءِ ، وقِرَاءَتَهُ لأَعْمَالِ الْكُتَّابِ ، ولم يَكُنْ يكْتَفِى باللِّقاءَات مَعَ المفكِّرِينَ والْعُلَماءِ ومَنْحِهِمُ الْعَطايَا والْهَدَايا والمكَافآت ؛ فَرَاسَلَ مَشَاهِيرَ الْكُتَّابِ والْعُلَمَاءِ أَيْنَمَا كَانُوا فى الْهِنْد أَوْ مصْرَ أَوْ فى غَيْرِهما ؛ وكَانَ مِنْ أَقْرَبِهِم إلى نَفْسه الْعَالمُ المصْرِىُّ الشَّيْخُ (محمدٌ الْمحْيَوِىُّ) فَاسْتَمَرَّ فى مُرَاسَلَتِه وبَعَثَ إليه بالْهَدايا اعْترَافًا بعِلْمِه وفَضْلِه .

وَضَمَّتْ مَجَالِسُ « الْفَاتِحِ » الْفِكْرِيَّة عُلماءَ ومفكِّرِينَ مِنْ أَجْناسٍ مُخْتَلفة مِنْ تُرْك وفُرسٍ وعَرَبٍ ولاتينَ . وذَاتَ يَوْمٍ اقْتَرَحَ عَلَيْه قَائدُ قُوَّاته بِأَنْ يُقلِّلَ مِنْ هَذه النَّدَوات حَتَّى لا تَصْرِفَهُ عن الحُكْمِ . . . فَاسْتَقْبَلَ « الْفَاتحُ » هَذَا الاقْتراحَ بابْتسَامَة طَيِّبَة ؛ لأَنَّهُ كَانَ يَحترِمُ مَنْ يَنْقُدُ أَعْمَالَهُ بَيْنَمَا يَنفُرُ مِمَّنْ يُنَافقهُ . فقَالَ لقَائد قُوَّاته :

« جَازاكَ اللهُ خَيْرًا عَلَى انْشغَالكَ بنُصْحى ، لَكنَّ تَرْبيَةَ الْعَقْلِ والرُّوحِ يَا أَخى هِىَ أَسَاسُ النَّجاحِ فى الْحيَاة ، وحينَ يتسَاوى فارسان فى فَنِّ الحَرْب فالَّذى يَفُوزُ هُوَ صاحبُ الْعَقْلِ الْقَوىِّ الْمُبْتكرِ ، وإنَّنى أَدْعُوكَ أَنْ تَحْضُرَ هَذِه النَّدَوات ثُمَّ تُخْبِرُنى برأْيكَ بَعْدَ التَّجْربَة » .

وإلى جوَار هَذِه المجَالسِ والنَّدوَات لَمْ يَنْقَطِع « الفَاتحُ » عَنْ تَدْريبَاته الْمُستَمرَّة عَلَى الْفُرُوسيَّة والْقتَال ، وفى مَجَال نظَامِ الحكْم حَدَّدَ الشُّرُوطَ الأَسَاسيَّةَ لأَصْحَاب المنَاصب الكَبيرَة فى الدَّوْلَة ، وَهِىَ شُرُوطٌ ثَلاثَةٌ : التَّقْوَى - وَالْكفاءَةُ - والشَّجاعَةُ فى إبْداء الرَّأْى .

وتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْ عَهْدِ هَذَا الْحاكمِ الشَّابِّ ، فَهُوَ عَهْدُ خَيْرٍ وعَدْلٍ ورَخَاء . . . وفى أواخرِ عَامِ (١٤٤٩) ميلادية - (٨٥٣) هجرية ، تَلَقَّى « الفَاتحُ » رِسَالَةً منْ أَبيه حَمَلَهَا إليهِ أَحَدُ الْوُزَراء ، وَفَضَّ الرِّسَالَةَ فَقَرَأَ تلْكَ الكَلمات :

« وَلَدُنَا الْفَارِسُ الْقَدِيرُ (مُحَمدٌ) حَاكِمُ (مغنيسيا) وَوَلِىُّ الْعَهد .

السَّلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ الله وَبرَكَاتُهُ . . . .

بعَوْنِ الله وَتَوْفيقه نَتَّجهُ إلى (أَلْبَانيا) لنُعيدَهَا إلى دِيَارِ الإِسْلام ، وأَنَا علَى وَعْدِى وعَهْدِى مَعَكَ ، وَمَيْدَانُ البُطُولاتِ فى انْتظَارِك » .

وأَشْرَقَ وَجْهُ (مُحَمَّد بالْفَرْحَة ، وأَجْلَسَ حَاملَ الرِّسالَة إلى جوارِه ، واسْتَعْلَمَ منه عَنْ تَجْهيزَات الجيْشِ وقُوَّة الأَعْدَاء ، وأَنْجزَ « الفاتِحُ » ما يَخُصُّ الرَّعيَّةَ مِنْ أُمُورٍ عاجلة ، ورتَّبَ شئُونَ البلادِ لِفَتْرةٍ مُسْتَقْبَلَة ، ثُمَّ رَحَلَ مُسْرِعًا إلى (أدرنة) العَاصمَة علَى حصَانه الحَبيبِ جمبولات . وهو يَمْتَلِئُ بِالْحَماسِ والتَّفَاؤُلِ وعلَى شفَتَيْه هَمَسَاتٌ :

ستَكُونُ هِيَ الحَرْبُ الفَاصِلَةُ بِإِذْنِ الله ، وسَيَنْدَمُ الأَميرُ (اسكندرُ) علَى غرُورِه وخيَانَته .

وفى (أدرنةَ) بَاشَرَ « الفاتِحُ » بنَفْسه اسْتعْدادات الحَرْبِ ؛ فَقَدْ عَيَّنَهُ أبُوهُ نائبًا للْقائد العَامِ لِهَذه المعْرَكَة الهامَّة .

حَسَنًا . . إنَّه لَنْ يكُونَ مُقاتلاً فَحَسْب ، وَإِنَّما سَيَكُونُ مُشارِكًا فى التَّخْطِيطِ والتَّنْظِيمِ وإِدارةِ المعْرَكَةِ -، وشَكَرَ «الفاتحُ»

أَباهُ عَلَى تلكَ الثِّقَة، ووَعَدَهُ أَنْ يكُونَ الفَارِسَ الأَوَّلَ فى الميدان.

وتَحرَّكَت القُوَّاتُ العثْمانيَّة تَتقَدَّمُها رايَاتٌ عاليةٌ خفَّاقَةٌ مكْتوبٌ عَلَيْها « لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رَسُولُ الله » وَ الْجهَادَ .. الْجهَادَ .

ووَصَلَتْ قُوَّاتُ المسْلمينَ الْعُثْمانيَّةُ إلى (ألبانيا) ، وحَاصَرَتْ مَدينَةَ (كرويا) ، ونَشطَ « الفَاتحُ » فى المرورِ عَلَى الجُنُود والتَّعَرُّف عَلَى الأَحَداث أَوَّلاً فَأوَّل ... وبكُلِّ الهمَّة نَاقَش الجُنُودَ ، وطَمْأنَهُم عَلَى أَحْوال أُسَرِهم ، وشَجَّعَهُم بآيَاتِ من القُرآن الْكَرِيم وبأَحاديث النَّبىِّ ﷺ الَّتى تَحضُّ عَلَى القتالِ فى سَبيلِ الله ، ويُذَكِّرُهُم بالمكافَأة العَظيمَة الَّتى تَنْتَظرُ المجاهدينَ والشُّهداءَ ، ويَتَمَنَّى لنَفْسه - مَعَهُم - الشَّهادَةَ ، ويُشْعِرُ كُلَّ جُنْدىٍّ أنَّ هَذَا الفارسَ الْفَتَى الشُّجاعَ أَخٌ لَهُمْ .

وتَصَدَّى « الفاتحُ » بنَفْسه لمُناوَشَات الأَعْداء ، فاشْتَعَلَتْ رُوحُ الْقتَال بَيْنَ الجنود العُثْمَانيِّينَ ، وتأَكَّدَ الأَبُ بينْ أَنَّ ابْنَهُ سيكُونُ قائدًا فَذاً يُمكنُ الاعتمادُ عليه .. وبرغْمَ أَنَّ وَلَدَهُ فى سنِّ الحاديَةَ والْعشْرين يُطَبِّقُ الأُسْلُوبَ الأَمْثَلَ فى مُعَامَلَة الأَعْداء والأَصْدقاءَ، ويُمَيِّزُ بفراسَته وذَكَائه بَيْنَ الْخَبيث والطَّيِّب .

أَمَّا الأميرُ (اسكندر) فكَانَ قائدًا داهيَةً مُراوِغًا شُجَاعًا تَغْلى عُرُوقُهُ بالْحقد والثَّأر لزَوَال عَرْش أَبيه ، وركَّزَ (اسْكَنْدرُ) ضَرَبَاته ضدَّ الْقُوَّات الْعُثْمانيَّة فى اللَّيْلِ ، ونَجحَ (اسْكَنْدرُ) فى الدِّفَاع عَنْ (كرويا) وإصَابَة الكثيرِ من جُنودِ المسْلمينَ ولَمْ يَقْبَلْ أَيَّةَ شُروطٍ للتَّفَاوُضِ والتَّنازُل .

وانسَحَبَ الجيْشُ العُثْمانىُّ فى الْوَقْتِ الْملائمِ حتَّى لا تَتزَايَدَ خسَائرُهُ دُونَ جَدْوَى، وأَخْبَر الأَميرُ (اسكندرُ) حُلَفَاءَهُ بأَنَّهُ انْتَصرَ على حَمْلَة - مراد الثَّانى ووَلَده الفَاتحِ . لَكنَّ الفَّارِسَ الشَّابَّ « الفَاتحَ » ازْدَادَ إصْرارُهُ علَى مُهَاجَمَة (كرويا) فى فُرْصَة أَفْضَلَ ، ونَادَى فى قُوَّاته قَائلاً : « إنَّها جَوْلَةٌ لَمْ نَكْسَبْهَا، وتَبْقَى جَولاتٌ قادمَةٌ يَنْصرُنا اللهُ فيها بإذْنه وتَأْييده ، وفى الْغَد الْقريبِ يَدْفَعُ (اسْكَنْدَرُ) ثَمَنَ تَمَرُّده وخيَانَته غَاليًا ، فَلكُلِّ خَائنٍ نهَايةٌ » .

* * *

عُرْسُ الْفَارِسِ

بَعْدَ شُهورٍ من حصَار (كرويا) ، اقْتَرَحَ الأَبُ على ابْنه «الفَاتِحِ » أَنْ يَتَزوَّجَ فَقَدْ أَصْبَحَ شاباً . وما كادَ الأَبُ يُحَدِّثُهُ فى هَذَا الشَّأْن حَتَّى وَافَقَ ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ الأَبُ عَنِ الْفتَاة الَّتِى اخْتَارَها قَلْبُهُ قَالَ الفَاتِحُ :

– أُصَارِحُك أَيُّها الْفَارِسُ الْعَظِيمُ والأَبُ الْكَرِيمُ أَنَّنِى فَكَّرْتُ فى هَذَا الأَمْرِ ، وحكَّمتُ عَقْلى قبل أَنْ أُحكِّمَ قَلْبى ، والْحَمْدُ لله الَّذى جَعَلَ حُكْمَ عَقْلى وَقَلْبى وَاحدًا ، وَيَبْقَى أَنْ تُبَارِكَ برأيكَ رَأْيى ، وإِذَا لَمْ يُوَافِقْ رَأْيُكَ رَأْيى فَلَنْ أُخَالِفَكَ .

– حَدِّثْنِى عَنْها يا بُنَىَّ ، فَرُبَّما عَرَفْتُها قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَنى بِاسْـمِهَا، فقال « الفاتحُ » فى سَعادَة :

– إِنَّها أَميرَةٌ بِنْتُ أَمير ، وأَبُوها مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْكَ ، أَنْعَمَ اللهُ عليْها بالتَّقْوَى فَهِى لا تَنْقَطِعُ عَنْ زيارَة المسْجد والصَّلاة فيه ، ومُنْذُ عَشْرِ سنَوات رَأَيْتُها وَهِىَ بصُحْبَة أَبَوَيْهَا فى زِيَارَة لنا ، ولَمَسْتُ فى حديثِها الذَّكَاءَ وَرِقَّةَ الطَّبْعِ ، والطَّبْعُ لا يَتَبَدَّلُ كما يقولُونَ .

- كَأَنَّكَ تُحَاوِلُ أَنْ تُقْنِعَنِى بها .

- إِنَّها أَيْضًا يَا أَبى . . .

- لا تُكْمِلْ . . . فَأَعْتَقِدُ أَنَّنِى عَرَفْتُها . . . إِنها ابْنَةُ الأَمِيرِ سُلَيْمَانَ ولَكِنْ . . .

وَسكَتَ الأَبُ قليلاً ، فَرَدَّ الابْنُ فى قَلَقٍ :

- نَعَمْ . . إِنَّهَا هِىَ . . . لَكِنْ مَاذَا ؟؟!!

- لَكِنْ . . لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرنِى بهَا مِنْ قَبْلُ ؟! .

- كُنْتُ أَنْتَظِرُ شَهَادَتَكَ لِى بِاكْتِمَالِ الْفُرُوسِيَّةِ .

فَضَحكَ الأَبُ ، وقال وَهُوَ مُعْجَبٌ بِلَبَاقَةِ الرَّدِّ :

- مُنْذُ كُنْتَ طفلاً وأَنَا أَرَى فيكَ مَلامحَ رَجُلٍ حكيمٍ عَجُوزٍ، ولا يُمْكِنُ أَنْ أَرُدَّ اخْتِيَارَ رَجُلٍ عَجُوزٍ مِثْلكَ ، فَعَلَى بَرَكَةِ اللهِ نَخْطُبُها ، وَنُعَجِّلُ بالزِّفَافِ إِذَا تَمَّت المُوافَقَةُ .

وَاحْتَضَنَ الأَبُ ابْنَهُ فى صَمْتٍ وانْشِرَاحٍ .

ولَمْ تَمْضِ بِضْعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى احْتَفَلَتِ البِلادُ بزَوَاجِ وَلِىِّ الْعَهْدِ، وَفَارِسِ الْحرب وحَكِيمِ السِّلْمِ ، الشَّابِّ (مُحمَّد الْفَاتحِ) بالزَّوَاجِ مِنَ الأَميرةِ ابْنَةَ الأَميرِ (سُلَيْمَانَ) ، وَسَافَرَ

الْعَرِيسُ وعَرُوسُهُ إلى (مَغْنيسْيَا) ، وقَضَيَا أَيَّامًا سَعِيدةً لَمْ تَمْتَدَّ طَوِيلاً - فَقَدْ تُوُفِّيَ الأَبُ الفَارِسُ الحَانِى (مُرادٌ الثَّاني) فى فبراير عام (١٤٥١) ميلادية - (٨٥٥) هجرية ، واسْتَقْبَلَ الْفَاتِحُ نَبَأَ وَفَاةِ أَبِيه بِحُزْنٍ عَمِيقٍ ودُموعٍ سَاخِنَةٍ ، وَعَزَمَ عَلَى تَحقيقِ آمالِ أَبِيهِ حتى تَهْدَأَ رُوحُهُ وتَسْعَدَ .

وَجَلَسَ وَلِىُّ الْعَهْدِ - مُحمدٌ الفَاتِحُ - فى مَقْعَدِ السُّلْطَانِ الْكبيرِ ، وبَدَأَ صَفْحَةً جَديدةً لا يُشَارِكُهُ فيها أَحَدٌ ، فَيَحْكُمُ بما يرَاهُ دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ أَمْرًا من سُلْطان أَعْلَى مِنْهُ ، فَهُوَ الآنَ سُلْطَانُ هَذه الإمْبراطُورِيَّة العُثْمانيَّة الكَبِيرَة شَرْقِهَا وغربِهَا ، شَمَالِهَا وجَنُوبِها ، وهُوَ الْمَسْئُولُ الأَوَّلُ عَنْهَا ، وعَنْ رَعَايَاهَا ونَاسِهَا ، وَعَنِ الدِّفَاعِ عَنْهُمْ أَمَامَ اللهِ ، وَهُوَ يَخْشَى اللهَ كُلَّ الْخَشْيَةِ وَيَسْعَى إلى رِضَاهُ .

وَصَاحَ السُّلطانُ الفَاتِحُ فى أصْحابِهِ كأنَّهُ يَدُقُّ جَرَسَ الْعَمَلِ وَالْجِدِّ .

« مَنْ كَانَ يُحِبُّنِى فَلْيَتْبَعْنِى » .

* * *

الفصل الثالث

السَّـــيِّدُ الْعَظِيمُ

إِنَّنِى تِلْمِيذُكَ

فِى قَصْرِ السُّلْطَانِ فِى (أَدِرْنَةَ) اسْتَقْبَلَ « مُحَمَّدٌ الْفَاتِحُ » الوفودَ مِنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ ، وسَمِعَ منهم أَكْثَرَ مِمَّا قَالَ لَهُمْ ، وكانَ يَخْتِمُ لِقَاءَهُ مَعَ كُلِّ وَفْدٍ بِكَلِمَةٍ جَاءَ فِيهَا :

– إِنَّنِى أَدْعُو الْجَمِيعَ إِلَى السَّلامِ وَاحْتِرَامِ الْعُهُودِ وَالْمواثِيقِ ، وأَنَا وَشَعْبِى نَسْعَى إلى حُسْنِ الْجوارِ ، وتَقْدِيمِ الْعَوْنِ لِكُلِّ الشُّعوبِ ، فَالإِسْلامُ رِسَالَةٌ لِكُلِّ الْبَشَرِ .. رِسَالَةُ اسْتِقْرَارٍ وحُرِّيَّةٍ وحَضَارَةٍ ، لَكِنَّنِى أُحَذِّرُ الْخَوَنَةَ وَالْمُغَامِرِينَ .

وأَبْقَى « محمدٌ الفاتحُ » فى الْبِدَايَةِ عَلَى مُعْظَمِ وُزَرَاءِ أَبِيهِ ، لِيسْتَفِيدَ مِنْ خِبْرَتِهِمْ حَتَّى مَنْ كان يَحْقِدُ عَلَيْهِ مِثْلَ (خَلِيل باشا)

وكَانَ «الْفَاتِحُ» يَعْلَمُ أَنَّ (خَليل باشا) صَديقٌ حَميمٌ لِعَدُوِّ البلاد الأَوَّلِ (قُسْطَنْطِين) حَاكِمِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ وإِمْبراطُورِ الدَّوْلَةِ الْبِيزنطِيَّة .

أَمَّا أميرُ الأُمراء (إِسْحَاق باشا) فَقَدْ قَرَّبَهُ إِلَيْه ، وَجَعَلَهُ مُسْتَشَارَهُ الخاصَّ ، ولَمْ يَغِبْ عَنْ خَاطِرِه وَصيَّةُ أَبيه (مُرادِ الثَّانى) ، واتِّجَاهُهُ إلى فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ونَشْرِ رِسَالَةِ الإسلامِ السَّمْحَاء . .

وذَاتَ يَوْمٍ قَالَ (إِسْحَاقُ باشا) للسُّلْطانِ « الفَاتِحِ » :

- إِنَّنى مُتَخَوِّفٌ مِنَ اسْتمرار (خَلِيل باشا) فى الْحُكْمِ أَيُّهَا السُّلْطَانُ الْحَبيبُ ، إِنَّهُ يَتَلَقَّى الْهَدَايَا من عَدُوِّنا الْخَطِيرِ (قُسْطَنْطِين) ، وَقَدْ ضَبَطَهُ القائِدُ « زَغْنُوسٌ » يتآمَرُ مَعَ رسُولِ (قُسْطَنْطِين) عَلَيْنا .

- شُكْرًا لَكَ وشُكْرًا (لِزَغْنُوس) . . إلا أَنَّ وجُودَ (خَلِيل باشا) مَعَنَا يَكْشِفُ لَنَا نَوَايَا الْعَدُوِّ دُونَ أَنْ يَقْصِدَ (خليلٌ) ذلك .

- قَدْ يَنْقُلُ إلى العدوِّ أَخْبارًا تَضُرُّ بِنَا .

- إنَّنى تلْميذُكَ يا (إسْحاق باشا) وأُصَارِحُكَ بأَنَّنى لا أُطْلعهُ عَلَى أىِّ قَرَارٍ ذى أَهَمِيَّة ، كَمَا أنَّه يَخْضَعُ لِرقَابة مُشَدَّدَة . . ولا تَنْسَى أنَّ (لِخَليلٍ) أَعْوَانُهُ فى الْجَيْشِ وَخَارِجِ الْجَيْشِ .

- أيُّها السُّلْطَانُ ، إنَّك تَعْرِفُ ما تُرِيدُ .

* * *

مُنَاوَرَاتُ الإمْبرَاطُور

قَبْلَ أَنْ يَتَوَلَّى « مُحَمَّدٌ الفاتِحُ » الحكْمَ بِبِضْعِ سَنَوات أَصْبَحَ (قُسْطَنْطِينُ) الحادى عَشَرَ حَاكِمًا لِلْقُسْطَنْطِينيَّة ، وإمْبراطورًا عَلَى الإمْبراطُورِية البيزَنطيَّة . وذَلكَ عَام (١٤٤٨) ميلادية - (٨٥٢) هجرية ، و(قُسْطَنْطِينُ) إمْبراطورُ الرُّومِ الجديدُ فَارسٌ قَوِى ذَكى شُجَاعٌ ماكرٌ عَنيدٌ ، وتَرَقَّبَ الرُّومُ فى عَهْدِه تَحقُّقَ السَّلَامِ والرَّخَاءِ والقَضَاءِ عَلَى الْفَسَادِ فى بِلادِهم .

وأرَادَ (قُسْطَنْطِينُ) أَنْ يَضُمَّ الْغَرْبَ إلى صفُوفه ليُؤَمِّنَ نَفْسَهُ ضدَّ هُجُومِ الْعُثْمانيِّينَ المرْتَقَبِ ، وقَرَّرَ أَنْ يُصَاهِرَ بَعْضَ الملوك ليَكْسبَ إخْلاصَهُم ، وفَشلَتِ الْمُحَاولَةُ ، فأَرْسَلَ طَلَبًا عَاما للنَّجْدَة إلى أُوربَّا يَقولُ فيه :

« إذا سَقَطَت الْقُسْطَنْطِينيَّةُ فى يَدِ الْعُثْمانيِّينَ فَإنَّهُم بَعْدَ ذَلكَ سَيَسْتَوْلُونَ عَلَى إيطاليَا نَفْسها » .

وسَارَعَ إلى تَوْحيدِ الْكَنِيسة الْغرْبيَّةِ والْكنيسَةِ الشَّرقيَّة ليَحْصُلَ

عَلَى مَعُونة ضَخْمَة منْ أُوربًا ، وتَصوَّرَ إمبراطورُ الرُّوم أنَّ «الفاتحَ » لحَدَاثة سنِّه يُمكنُ تهديدُهُ وتَخويفُهُ ، فَجهَّزَ نَفْسَهُ لتوْجيه ضَرْبَة قاضيَة ضدَّ « الفاتح » فى أوَّل فُرْصَة مُواتيَة ، وشَجَّعَ الإمْبراطُورُ حُكَّامَ بَعْض البلاد المجَاورَة عَلَى الثَّوْرَة والتَّمرُّد ضدَّ «الفاتح » ، فَأعْلَنَ الأميرُ (إبراهيمُ) أميرُ القرْمان الْحَرْبَ عَلَى « الفَاتح » ، وفى الوَقْت نَفْسه أرْسَلَ الإمبراطورُ إلى « الفاتح » يُهدِّدُهُ ويَسْتَفزُّهُ ويَتوَعَّدُهُ بأنَّهُ سَيُؤَيِّدُ الطَّامعين فى وِرَاثَة عَرْش الْعُثمانيِّينَ .

وتَنَبَّهَ « الفاتحُ » للمكيدَة ، فالإمْبراطورُ يُريدُ منْهُ أنْ يُحَاربَ فى أكْثَرَ منْ جَبْهة ، فَتَضْعُفَ قُوَاهُ وَيَسْهُلَ ضَرْبُهُ والتغلُّبُ عَلَيْه . وضَاقَ (خَليل باشا) نَفْسُهُ بهذه الضُّغُوط الشَّديدة الْمُتلاحقَة ، فَقَالَ لرُسُل الإمبراطور غاضبًا :

« إنَّكُمْ تَجْهَلُونَ الخطَرَ الَّذى يُحيطُ بكُمْ ، لَقَدْ ذَهَبَ السُّلْطَانُ (مُرادٌ) بحلْمه وصَبْره ، وخَلَفَهُ عَلَى الْعَرْش سُلْطانٌ جَديدٌ عَنيدٌ ، افعَلُوا ما يَحلُو لَكُمْ أيُّها الْحَمْقَى، ادْعُوا الْمَجَرَ وأُمَمَ الْغَرْب وازْحَفُوا عَلَيْنا فَلَنْ تكْسبُوا منْ وَرَاء ذَلكَ شَيْئًا ،

بَلْ سَتُعَجِّلُونَ القَضَاءَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ ما يُرِيدُهُ السُّلْطانُ لا يُوقِفُهُ شَيْءٌ».

واقْتَرَحَ (خَليل باشا) إعْلانَ الْحَرْبِ عَلَى القُسْطَنْطِينِيَّةِ لتَأْديبِ الإِمْبراطُورِ المغْرُورِ، لَكِنَّ « الفَاتِحَ » لَمْ يَأْخُذْ بمَشُورَته، بَلْ أَجَابَ طَلَبَات وَفْد الإِمْبراطُورِ الماليَّةَ ، وأَحْسَنَ اسْتِقْبَالَهُم برَغْمِ تَهْديدهم لَهُ ، ولَمْ يُكاشف « الفَاتِحُ » (خَليل باشا) بنَوايَاهُ ، فَهُوَ يُفضِّلُ أَنْ يَتَفَرَّغَ أَوَّلاً لتأْديبِ الْمُتَمَرِّدِ الأميرِ (إبراهيمَ) ، ثُمَّ يُلَقِّنُ الإمبراطورَ دَرْسًا لا يَنْسَاهُ .

وفُوجِئَ الأَميرُ (إِبْراهيمُ) بزَحْفِ قُوَّات « الفَاتِحِ » تَحْتَ قِيادَةِ (إسحاق باشا) فى عَدَدٍ هائلٍ منَ الجُنْد ، و« الفَاتِحُ » على مَقْرُبَةٍ منَ المَيْدان يُتَابِعُ ويُرَاقِبُ ويُوَجِّهُ ، حَتَّى أَتاهُ (إِسحاقُ) والسَّعادَةُ تُطِلُّ منْ وَجْهِهِ وعَيْنَيْه .

- الْيَوْمَ .. انْتَهت الْمَعْرَكَةُ نِهائياً بنَصْرِنَا ، والحمدُ لله ، وصَلَّى الجنودُ رَكْعَتَيْنِ فى المَيْدانِ شُكْرًا لله عَلَى هَذَا النَّصْرِ السَّرِيعِ .

قَالَ « الفاتِحُ » وَقَدْ رَفَعَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ إِلى السَّماء :

- الْحَمْدُ لله . . . الْحَمْدُ لله . . . نَحْنُ نُدَافِعُ عَنِ الحقِّ ، واللهُ مَعَ مَنْ يُدافِعُونَ عَنِ الحقِّ .

ثُمَّ قَالَ (إِسْحاقُ باشا) :

- عِنْدِى مُفَاجَأَةٌ أُخْرَى سَتَسُرُّكَ . . . إِنَّ الأَميرَ (إبراهيمَ) بِالْبَابِ .

- هُوَ أَسيرٌ إِذَنْ ؟! .

- بَلْ سَعَى إِلىَّ بِنَفْسِهِ وَطَلَبَ مُقَابَلَتَكَ .

ودَخَلَ الأميرُ (إبراهيمُ) عَلَى السُّلطان ، وَرأْسُهُ مُنَكَّسَةٌ مَحْنِيَّةٌ باتِّجاه الأَرْضِ ، لا يَقْدرُ عَلَى رَفْعِ عَيْنَيْهِ أَمَامَ السُّلطانِ ، قَالَ السُّلْطانُ فى غَيْظٍ وحُنْقٍ :

- مَاذا تُريدُ أَيُّها الخائنُ ؟! كنَّا نَظُنُّكَ مِنَ الأَوْفياءِ ، وما بَيْنَنَا الآنَ الثَّأْرُ والدِّمَاءُ.

تَقَدَّمَ الأَميرُ خُطْوَةً إِلى « الفاتِحِ » . وسَالَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وهُوَ يَقُولُ بِصَوْتِهِ الْبَاكِى :

- لا أُريدُ شيْئًا لِنَفْسِى ، وكَانَ يُمْكِنُنِى الفِرَارُ ، لَكِنَّنِى أَشْعُرُ

بالنَّدمِ ، لَقَدْ غَرَّرَ بى وخَدَعَنى (قُسْطَنْطِينُ) الشَّيْطانُ لعنةُ الله عليه ، وهَا أَنَذَا أَرْجِعُ نَادمًا كلَّ النَّدَمِ، فَاقْبَلْنى مِنْ جَدِيدٍ جُنْديا مِنْ جُنودِكَ ، ومُحَارِبًا فى صُفُوفِكَ ، أَنْتَ الفارِسُ الكَرِيمُ ، وَالْعَفْوُ مِنْ طِبَاعِ الفُرْسانِ .

وَطَالَ الحِوَارُ بَيْنَهُما ، وَازْدَادَ بُكاءُ الأَميرِ الَّذى عَبَّرَ عَنْ صِدْقِ نَدمه ، فَصَفَحَ عنه « الفَاتِحُ » ، وعِنْدَئذٍ قَالَ (لإِسْحاق باشا) فى كَلِماتٍ قَاطِعةٍ بَاتِرَةٍ :

« الآنَ . . . نَتَفَرَّغُ لِذئبِ « القُسْطَنْطِينيَّةِ » .

* * *

قَلْعَةُ الرُّعْبِ

كَانَتْ هُنَاكَ قَلْعَةٌ قَديِمَةٌ مُقَامةٌ عَلَى الشَّاطِئِ الآسْيَوِىِّ ، تُسَمَّى (القَلْعَةُ الجَميلَةُ) . . ورَأى « الفَاتِحُ » أَنَّ هَذه الْقَلْعَةَ غَيْرُ كافيةٍ ، فَأَصْدَرَ أَوَامِرَهُ بِبناء قَلْعَةٍ أُخْرَى شاهِقَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ الأوربىِّ ، سُمِّيَتْ بـ« قَلْعَةِ الرُّومِ » .

انْدَفَعَ آلافُ الْعُمَّال والمهَنْدسينَ للْعَمَلِ فى بناء الْقَلْعَة ، وكَـأَنَّ كُلَّ واحد منْهُمْ يَبْنِى بَيْتَهُ هُوَ ، يُنْشِدُونَ أَناشيدَ الْعَمَلِ الْوَطَنيَّة ، يُسابِقُونَ الزَّمنَ ليَنْتَهِىَ تَشْيِيدُ الْقَلْعَة الجبَّارة فى أَقْصَرِ وَقْت مُمْكِنٍ ، واشْتَرَكَ السُّلْطَانُ « الفاتِحُ » بنَفْسه فى البنَاء ، يَعْمَلُ بيَده مَعَ العُمَّال والمُهندسينَ كَأَنَّهُ واحدٌ منْهُمْ ، فَيَتَوهَّجُ حَـمَاسُ العَامِلينَ ويَكْبُرُ الْبِنَاءُ الضَّـخْمُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ عَلَى الشَّاطِئِ .

وعَلَى الجانبِ الآخَرِ رَاقَبَ (قُسْطَنْطِينُ) ارْتفَاعَ هَذه الْقَلْعَة الجبَّارة سَاعَةً بَعْدَ سَاعَة ، وَصَارَتْ بِالنِّسْبَة لَهُ قَلْعَةَ الرُّعْبِ والْفَزَعِ . فالْقَلْعَةُ تُسَهِّلُ التَّحكُّمَ فى مُرُورِ السُّفُنِ فى مياهِ

الْبُوسفُور ، وَتُسَاهِمُ فى حِصَارِ المدينَةِ الَّذى يَسْتَعِدُّ لَهُ « الفاتحُ » بِكُلِّ قُواهُ .

وشَعَرَ الإِمْبراطورُ بالخَطرِ يَقْتَرِبُ منْهُ فأَرْسَلَ إلى « الفاتح » يَرْجُوه أَنْ يُوقِفَ الْعَمَلَ فى هَذَا البِنَاءِ الَّذى يُعْتَبَرُ تَهديدًا واعْتِدَاءً عَلَى الإِمْبراطُورِيَّة البيزنْطِيَّة .

ورَدَّ الفاتِحُ فى إجَابَة قاطعَة :

« لَيْسَ فيمَا أَقومُ بِهِ ما يُهَدِّدُ مَدينَتكُم ، إنَّما هِيَ أَسْبَابُ الحَذَر أتَّخذُها لدولَتِى ولَيْسَ فى ذَلكَ نَقْضٌ للْعَهْد مَعَكُمْ ، إنَّ (الْقُسْطَنْطينيَّةَ) لها أَسْوَارُها ، وهَدَّدَتْ والدى وجَيْشَهُ ذَاتَ يوم وكنْتُم تَسْخَرُونَ منهم وتَشْتُمُونَ ، وقَدْ أَقْسَمَ والدى أَنْ يُقيمَ قَلْعَةً ها هُنَا عَلَى الشَّاطِئ الأُورُبِىِّ ، وها أَنَذَا أَبَرُّ بيَمينه ولَيْسَ لَكُمُ الحقُّ أَوِ الْقُوَّةُ فى مَنْعِ ما أَقومُ به فى أَرْضِى ، فَاذْهَبُوا إلى سَيِّدكُم (قُسْطَنْطين) وأَخْبِروهُ أَنَّ السُّلْطانَ الْعُثْمانيَّ الآنَ يَخْتَلفُ عَنْ أَجْدَاده ، فَإِنَّ لِى عَزْمًا فَوْقَ عَزْمِهِم وقُوَّةً فَوْقَ قُوَّتِهِم ، انْصرِفُوا الآنَ إلى دياركم بسَلام ، ووَالله إذا جاءَنِى أَحَدٌ منْكُمْ بَعْدَ ذَلكَ بِمثْلِ هَذِهِ الرِّسَالَة سأَقْتُلُه » .

وانْصَرَفَ حاملُو الرِّسَالَةِ وهُمْ يرتَعِدُونَ .

وَظَلَّ الإِمْبراطُورُ يَنْظُرُ فى هلَعٍ ورُعْبٍ إلى أَسْوارِ الْقَلْعَة ، وهِىَ تَنْمُو والسُّفُنُ تَرُوحُ وتَجِئُ مِنْ آسيا وأُوربَّا مُحَمَّلَةً بمَوادِّ البناءِ والعُمَّال ، فَلَجَأَ الإِمْبراطورُ إلى وَسِيلَةٍ مُضْحِكَةٍ ليَخْدَعَ المسلمين بِحُسْنِ نواياهُ ، بَيْنَمَا قَلْبُهُ يَغْلِى بالْحِقْد المدَمِّرِ ، لَقَدْ أَرْسَلَ إلى الْعُمَّالِ الْعُثْمانيين وَجَبَاتٍ فَاخرةً مِنَ الطَّعامِ ، كَمَا لَجَأَ إلى حِيلَةٍ أخيرَة ، هِىَ الاتِّصَالُ بِصَدِيقِه (خَليل باشا) . . فَبَعَثَ الإِمْبراطورُ إلى (خَليلِ باشا) هَدَايَا ثَمِينَةً مِنَ الذَّهَبِ الخالصِ فى جَوْفِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَسْماكِ عَلَى أَمَلٍ أَنْ يُوقِفَ هَذَا البناءَ أَوْ يَشْفَعَ للرُّوم عِنْدَ السُّلْطان « الفاتِحِ » الَّذى أَطْلَقَ عَلَيْهِ الأُوربيُّون اسْمَ « السَّيِّد العَظِيم » .

قَابَلَ (خليل باشا) السُّلطانَ وهُوَ بَيْنَ عُمَّاله فى مَوْقِعِ بالْقَلْعَة ، ورَجَاهُ أَلا يَسْتَمِرَّ فى البنَاء ، وحَذَّرَهُ أَنَّ الْقَلْعَةَ ستكُونُ سببًا فى تَجَمُّعِ قُوَّات الْغَرْب ضدَّهُ . وأَطَلَّتْ وبَرَزَتْ مَعَانى الخيانَة فى عَيْنَيْه وفى نَبَرَات صَوْته ، ولَم يَتَحَمَّلِ السُّلْطانُ المزيدَ مِنْ هَذَا الْخداعِ ، وتلْكَ الْكَلماتِ الْهادمَةِ الْخَائنَة ، فَصَرَخَ فى (خليل باشا) أَنْ يَبْتَعِدَ ، وأَلاَّ يَسْمَحَ لِنَفْسه بَعْدَ ذَلكَ أَنْ يَتَوَسَّطَ

فى مثْلِ هَذه الأُمور ، فَمَضَى (خليل باشا) خَائبًا ، وأَدْرَكَ أَنَّ السُّلْطانَ كَشَفَ حَقيقَتَهُ .

وبَعْدَ أَقلَّ منْ ثَلاثَة أَشْهُرٍ احْتَفَلَ السُّلْطانُ والشَّعْبُ العُثْمانىُّ بإِتْمامِ بناء الْقَلْعَة الْعمْلاقة - قَلْعة الرُّومِ - ، وقَدْ بُنيَتْ على هَيْئَة مُثَلَّث يَحْتَوى أَبْراجًا سُمْكُ الواحد منْهَا عَشْرَةُ أمتارٍ ، وبهَا أَماكنُ للمَدَافع الضَّخمة .

وعلَى الشَّاطئ الآسيوىِّ تَظْهَرُ الْقَلْعَةُ الجَميلَةُ الشَّامخَةُ فَأَصْبَحَتْ هىَ وَقَلْعَةُ الرُّومِ كَالقبْضَة الخانقَة لسُفُنِ العَدُوِّ وتَحَرُّكاته .

وَبدَأَ مُسَلْسَلُ الرُّعْب ضدَّ العَدُوِّ الماكرِ ، فَجُنودُ « الفاتحِ » يُفَتّشُونَ كُلَّ السُّفُنِ المارَّة منَ البُوسفُور ويُحَصِّلُونَ ضَريبَةَ المرُور ، أَمَّا السَّفينَةُ الَّتى تَرْفُضُ التَّفْتيشَ أَو الضَّريبَةَ فيُطْلقونَ عَلَيْها النَّارَ علَى الْفَور ، وَقَدْ مَنَعَ هَذَا الإِجْراءُ المساعَدَاتِ الَّتى تَأْتى إِلى العَدُوِّ منَ الْبَحْرِ الأَسْود .

وَاسْتَمرَّ « الفاتحُ » فى عَقْد اتِّفاقات سَلامٍ مَعَ الدُّولِ المجَاورَة ، وعَدَد منَ الدُّول الأُورُبّيَة الأُخْرى ليَنْفَردَ بالمدينة .

وفى مُحَاوَلَة يائسَة بَعَثَ (قُسْطَنْطِينُ) وَفْدًا إلى « الفاتِح » يَلْتَمِسُ مِنْهُ هُدْنَةً جَدِيدةً ، وكان الرَّدُّ حاسِماً صارِمًا :

- إذا كَانَ إمبراطورُكُمْ يَخْشَى الحَرْبَ ، فَلْيُسَلِّمْ لِى القُسْطَنْطِينيَّةَ ، وأُقْسِمُ لكُمْ أَنَّ جَيْشِى لَنْ يَتَعرَّضَ لأَحَدٍ فى نفسِهِ أو ماله، ومَنْ شَاءَ بَقِىَ فى المدينَة، وعَاشَ فيها فى أمْنٍ وسلامٍ، ومَنْ شَاءَ رحَلَ عنها وذهَبَ حَيْثُ أَرَادَ فى سَلام أيْضًا .

اسْتَاءَ الإمبراطورُ مِنْ هَذَا الرَّدِّ ، وَراحَ يُحَصِّنُ مَدِينَتَهُ وَيُخَزِّنُ المُؤَنَ والطَّعامَ والعَتَادَ ؛ استِعْدادًا لِلْحربِ ومُوَاجَهَةِ الحصارِ .

* * *

خُطَطُ السُّلْطَان

تَعرَّضَتْ بَعْضُ المُدنِ الإِسْلاميَّة لاعْتدَاءات مِنَ الرُّوم وأَعْوَانِهم ، فَأَقْسَمَ « الفاتِحُ » أَنْ يَثْأَرَ لِشُهَدَاء المُسْلمينَ الَّذينَ قَتَلَهُم الأعْداءُ ، ونَشَطَ فى عَمَلِ مصانِعَ للأَسْلحَة ، وتَجْهيزِ جَيْشٍ كبيرٍ بَلَغَ عَدَدُ قُوَّاته (١٦٠) مائةٌ وستُّونَ ألفَ جُنْدىٍّ ، وحَارَبَ البِلادَ المجاوِرَةَ (لِلقُسْطَنْطِينيَّة) حَتَّى لا تَمُدَّ (القُسْطَنْطِينيَّةَ) بالطَّعامِ والسِّلاحِ والجنُودِ .

أَمَّا الإمبراطورُ فَلَمْ يكُفَّ عَنْ طَلَبِ النَّجْدَة مِنْ أُوربَّا ، وَوَصَلَتْهُ معونات مَحْدُودَةٌ ؛ لانْشغالِ الأُوربيِّينَ فى حُرُوبِهم مع بَعْضِهم الْبَعْضَ ، ومِنْ أَهَمِّ المساعدات الَّتى فَرِحَ بها الإمبراطُورُ وصُولُ سُفُنِ المغامرِ الشَّهيرِ (جان جستنيان) مِنْ جنْوا مُحَمَّلَةً بالجنودِ والسِّلاحِ ، فرحَّبَ بِهِ الإمبراطورُ وَعيَّنَهُ قائدًا لعَمَليَّات الْحصارِ الْحَرْبيَّةِ ، ورَحَلَ إلى الْمدينةِ الْخَائفَة مُقَاتلُونَ مِنْ كَافَّة أَنْحاء أُوربَّا .

وعثَرَ الإمبراطورُ عَلَى فكْرة ثَمينَة لِقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى أُسْطُول « الفاتحِ » الَّذى يُنَاوِرُ للسَّيْطرة عَلَى المدينَة ، لَقَدْ وَضَعَ الإمبراطورُ سِلْسِلَةً حَديديَّةً ضَخْمَةً سَدَّ بها الْمَمَرَّ الْمائىَّ الْمُسمَّى بـ« الْقَرْنِ الذَّهَبىِّ » الَّذى يُؤدِّى إلى المدينَة ، وأَغْلَقَ الممَرَّ أَمامَ سُفُنِ الفَاتِحِ ، بَيْنَما احْتَمَتْ بِالسِّلْسِلَة سُفُنُ العَدُوِّ .

وبحَثَ السُّلْطانُ طويلاً عَنْ حَلٍّ لتَدْميرِ هَذه السِّلْسِلَة أَوِ الإفْلات منها ، وفى تلْكَ الأثْنَاء الْتقَى السُّلْطَانُ بِمُهَنْدسٍ مَجَرِىٍّ يُدْعَى (أورْبان) يَعْمَلُ فى صنَاعة الْمَدَافعِ، والغَرِيبُ أَنَّ (أورْبان) كَانَ قادمًا مِنْ عِنْدِ (قُسْطَنْطِين) ، لكنَّ (قُسْطَنْطِين)

لَمْ يَدْفَعْ لَهُ ما يَطْمَعُ فِيهِ مِنْ مالٍ لِقاءَ خِبْرَاتِهِ ، فاسْتَجابَ « الفَاتِحُ » لِكلِّ طَلَباتِه وَقَالَ لَهُ :

– هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَصْنَعَ مَدَافِعَ أَكبَرَ مِنَ الَّتى صَنَعْتَها حَتَّى الآنَ ؟

أجَابَ (أُورْبانُ) :

– فى استْطاعَتى أَنْ أَصْنَعَ لَكَ مدْفَعًا يَدُكُّ أَسْوارَ القُسْطَنْطِينيَّةَ ، ولَوْ كَانَتْ فى قُوَّةِ أَسْوارِ بَابِلَ ، غَيْرَ أَنِّى مُهَنْدِسٌ ولَسْتُ جُنْدياً ولا أَعْرِفُ أَيْنَ تُوضَعُ المدافِعُ .

فَرَدَّ « الفاتِحُ » ضَاحِكًا :

– أَنَا الجنْدىُّ ما عَلَيْكَ إلا أَنْ تَصْنَعَ المدافِعَ الَّتى أُريدُها ، أَمَّا أَيْنَ توضَعُ فَدَعْ ذَلِك لِى .

ونَجَحَ (أُوربانُ) فى صِنَاعَةِ مدْفَعٍ ضَخْمٍ لا مَثِيلَ له ، تَزِنُ قذيفَتُهُ اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ ، ويَتَطَلَّبُ سَحْبُهُ وجرُّهُ – بِبُطْءٍ شديد – مائَةُ ثَوْرٍ ومائَةُ رَجُلٍ ، ويُسْمَعُ دوِىُّ طَلْقَتِه (قَذيفَتِه) عَلَى بُعْدِ ثَلاثَةَ عَشَرَ ميلاً، وسَمَّاهُ النَّاسُ « الْمِدْفَعَ السُّلْطَانِىَّ ».

اسْتَدْعَى السُّلْطانُ رِجَالَ الدَّوْلَة وقَادَةَ الْجيشِ وَعَددًا مِنْ رِجَال الدِّينِ ، وأَعْلَنَ لَهُم أَنَّ الوقْتَ قَدْ حَانَ لِفَتْحِ (الْقُسْطَنْطينيَّة) ، وَأَدْلَى كُلٌّ مِنْهُمْ بِرَأْيِه فى الْخُطَطِ الَّتِى وضَعَهَا السُّلطانُ ، وتَمَّ الاتِّفَاقُ عَلَى الخُطَّة النَّهائِيَّة . وحِينَ عَادَ إلى قَصْرِهِ قَالَ لِزَوْجِه الأَميرَة :

- زَوْجَتِى الْعَزِيزةُ . . غَدًا نَرْحَلُ إِلى المَيْدَانِ . . . مَيْدانِ الشَّرَفِ والجِهاد فَقَالَتْ :

- قَادةُ جَيْشكَ مُخْلصونَ وأَقْوياءُ ، يُمْكِنُهم تَنْفيذُ خُطَّتكَ وأَنْتَ هُنا ، فَرَدَّ عَلَيْها قَائلاً :

- الجهادُ شَرَفٌ لا أُحبُّ أَنْ يَفُوتَنى ، وبِهِ أَمَرَنا اللهُ ورسولُهُ - ادْعِ لَنَا بالنَّصرِ أَيَّتُها الزَّوْجَةُ الْحَبيبةُ .

* * *

فى الخامسِ مِنْ أَبْريل (١٤٥٣) ميلادية - محرم (٨٥٧) هجرية ، بَدَأَ تَنْفيذُ الخُطَّة ، وتَصدَّرَتْ قُوَّات الجيْشِ أَعْدَادٌ مِنْ رِجَالِ الدِّين والعُلَماءِ وَفِرَقِ الْمُوسِيقَى العَسْكَرِيَّة وطُبول الْحَرْبِ

الَّتى تَدُقُّ وتُشْعِلُ حَماسَ الجنودِ ، وكَانَ أَوَّلُ عَمَلٍ قَامَ بِهِ الجَيْشُ هُوَ الصَّلاةَ خَلْفَ قائده الأَعْلَى « مُحَمَّد الفَاتح » ، تَصَاعَدَتْ بَعْدَها هُتافاتٌ مُدوِّيَةٌ : اللهُ . . . اللهُ . . . اللهُ . . .

وتَوَلَّى كُلُّ قائد قيادَةَ جَيْشه واحْتلالَ مَواقعه المحَدَّدة . (فإسحاقُ باشا) يَخْتَصُّ بجُزْءٍ منْ أَسْوارِ (القُسْطَنْطينيَّة) الحصينَة ، وهىَ أَسْوارٌ تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَلاثَة أَسْوارٍ ضَخْمَة مُتَوازيَة يَتَوَسَّطُهَا خَنْدَقٌ كبيرٌ عميقٌ ، وجُزْءٌ آخَرُ مِنَ الأَسْوارِ يَتَوَلاهُ «قُرَّه جه باشا » ، والْقسْمُ الثَّالثُ منَ الجَيْشِ يَتكوَّنُ منْ أَفْضَلِ المحَاربينَ ويُسَمَّوْنَ بالإنكشاريَّة ، ويُشْرفُ عَلَى منْطَقَة القَلْبِ أَو المنْطَقَة الوُسْطَى تحْتَ قيادَةِ « مُحَمَّد الفاتح » نَفْسه ، واصْطَحَبَ « الفَاتحُ » مَعَهُ (خليل باشا) ليَكُونَ تَحْتَ بَصَرِه هُوَ شَخْصيا. أَمَّا الْجيْشُ غَيْرُ النِّظَاميِّ فكانَ تَحْتَ قيادَة (زغنوس باشا) وهُوَ يُتَابعُ مُراقَبَة المرتَفَعات لمَنْعِ الإمْدادات عَنِ المدينَة .

وفى البَحْرِ انطَلَقَتْ ثَلاثُ مائَة سَفينَة يُسْمَعُ فيها دَقَّاتُ الطُّبولِ، وتَكْبيراتُ الجُنودِ الَّتى أَخافَتْ أَهْلَ المدينَة المُحاصَرَة ،

وأَدْخَلَت الرُّعْبَ فى قُلُوبهم ، وأَفْلَحَتْ هَذه السُّفُنُ فى تَدْمير الكَثير مِنَ السُّفُنِ المؤَيِّدَةِ للعَدُوِّ ، أَوْ أَجْبَرَتْهَا عَلَى الْعَوْدةِ والهَرَبِ .

وَاكْتَشَفَ جُنُودُ « الفاتِحِ » تَسَلُّلَ الأَعْداء باتِّجَاه قَلْعَة الرُّومِ لتَخْريبها فَحَارَبوهُم حَتَّى فَرُّوا ولَمْ يَعُودُوا مرَّةً أُخْرَى . ورَاحَتْ مدْفَعيَّةُ « الفاتِحِ » تَعْمَلُ لَيْلاً ونهاراً فى ضَرْبِ أسْوَارِ المدينَةِ بِعُنْفٍ .

* * *

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

هَزَائِمُ وانْتِصَارَاتٌ

الْمَدِينَةُ الْمُغْلَقَةُ

أَغْلَقَ الإِمبراطُورُ (قُسْطَنْطِينُ) أَبْوابَ مَدِينَةِ الْقُسْطَنْطِينيَّةِ واصْطَفَّ وراءَها لحمايَتِهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ جُنْدىٍّ ، وأَعْلَنَ (جستنيان) ضَرُورَةَ المحَافَظَةِ عَلَى أَسْوارِ المدينَةِ بأَىِّ ثَمَنٍ ، وَدارتْ مَعَارِكُ عَنيفَةٌ ضَارِيَةٌ وَدَوَّت المدافعُ ، وانطلَقَتْ قَذَائِفُ المدْفَعِ السُّلْطَانِىِّ تَدُكُّ أجْزاءً مِنْ أَسْوَارِ المدِينَةِ ، فَسَارَعَ جُنُودُ الإِمْبراطُورِ إِلى بِنَاءِ الأَجْزَاءِ المهَدَّمَةِ ، وحِينَ زادَت الفَتَحاتُ والثَّغَراتُ فى الأَسْوَارِ انْدَفَعَتْ جمَاعَاتٌ مِنْ جُنُودِ « الفاتحِ » لاقْتحَامِها ، واسْتَعَانَ جُنُودُ « الفاتحِ » بِسَلالمَ ثبَّتُوها عَلَى الأَسْوارِ ، وحَاوَلُوا تَسَلُّقَهَا مِنْ نَاحيَةِ بَحْرِ « مَرْمَرَةَ » ومنْ أَمَاكنَ أُخْرَى ، ولَمْ يُوَفَّقُوا فى مُهِمَّتِهِمْ ؛ فَقَدْ قَاتَلَ الأعْداءُ بِبَسالةٍ ،

بالمدافعِ وبالنّار الإغريقيَّة والسِّهامِ والحِرابِ وبكُلِّ الوَسائلِ - واستُشْهدَ الكَثيرُ منْ جُنُود المسْلمينَ ، فَأمَرَ « الفاتحُ » بانسحابِ بَقيَّةِ الجُنُودِ إلى مواقِعِهِمْ بالأبْراجِ والسُّفُنِ فى البَرِّ والبَحْرِ .

وَحاولَتْ بَعْضُ السُّفُنِ العُثْمانيَّة تَحْطيمَ السِّلْسلَة الضَّخْمَة ؛ فَاشْتبكَتْ مَعَ السُّفُنِ الإيطاليَّة الَّتى كانَتْ راسيَةً خَلْفَ السِّلْسلَة ؛ ولَمْ تَنْجَحِ المحاوَلَةُ فانْسحَبَتْ سُفُنُ « الفَاتحِ » بَعيدًا عَنِ السِّلْسلَة ، وبذَلكَ حَقَّقَتْ قُوَّاتُ (جستنيان) والإمْبراطُورِ انْتصارًا مُبْهرًا فى البَرِّ والبَحْرِ ، ورَقَصَ النَّاسُ فى شَوَارعِ القُسْطَنْطينيَّة مَسْرُورينَ بالنَّصْرِ ، وذَهَبَ (قُسْطَنْطينُ) إلى كَنيسَةِ (أيَا صُوفَيَا) وصَلَّى صَلاةَ الشُّكْرِ عَلَى هَذَا النَّصْرِ العَاجلِ .

* * *

مَعَارِكُ بَحْرِيَّةٌ

فى الْيَوْمِ التَّالِى ظَهَرَتْ فى بَحْرِ (مرمره) خَمْسُ سُفُنٍ قَادمة مِنْ أُوربَّا لتَنْضَمَّ إلى أُسْطُولِ الأَعْدَاء ، وحِينَ بلَغَ « الفَاتِحُ » خَبَرَهَا أَسْرَعَ بركُوب حصَانه الأثير «جمبولات » إلى شاطئ الْبَحْرِ ، وأَمَرَ قَائدَ قُوَّاته الْبَحْرِيَّة « بالطه » بصَدِّ هذه السُّفُنِ ، ومَنْعهَا منَ الانْضِمَامِ إلَى العَدُوِّ ، وقَالَ لَهُ فى قَلَقٍ وغَضَبٍ وحِدَّة :

« إمَّا أَنْ تَسْتَوْلِىَ عَلَى هَذه السُّفُنِ ، أَوْ تُغْرِقَهَا ، وإذَا فَشلْتَ فى ذَلكَ فَلا تَعُدْ إلَيْنا حَيا » .

وعَلَى مَدَى هَذَا اليَوْمِ لَعبَت الرِّيَاحُ فى المعْرَكَة دَوْرًا رَئيسيًا ، فَحينَ تَنْشَطُ الرِّيَاحُ تَتحَرَّكُ السُّفُنُ الأُوربِّيَّةُ وتَهْرُبُ منْ سهَامِ القُبطان « بالطه » ، ثُمَّ ما تَلْبَثُ الرِّيَاحُ أَنْ تَهْدَأَ فَتُبْطِئَ السُّفُنُ الأُوربيَّةُ وتَصيرُ فى مَوْقف صَعْب وهكذا مَرَّةً ومَرَّةً ، وتَمكَّنَ جُنودُ « بالطه » منَ القَفْز إلى السُّفُنِ الأُوربيَّة وقتالهم دَاخلها - وفَقَدَ « بالطه » إحْدَى عَيْنَيْه فى المعارك ، وقَدْ شَاهَدَ « الفاتحُ »

الصِّرَاعَ بأَكْمَلِه ورَأَى مُعَانَاةَ جُنُودِه وبَسَالَتَهُمْ وشَجَاعَتَهُمُ النَّادرَةَ، وغَاصَ « الفاتحُ » بِحصانه فى الْبَحْرِ يُشَجِّعُ جُنُودَهُ عَلَى التقدُّمِ والصُّمُود ، وكادَتِ السُّفُنُ الخَمسُ تَسْتَسْلِمُ إلا أَنَّ الرِّياحَ نَشطَتْ بشدَّة عِنْدَ الْغُرُوبِ ، فانْدَفَعَت السُّفُنُ الخمسُ بما تحملهُ إلى السِّلْسِلَة وعَبَرَتْهَا ، ثُمَّ أُغْلِقَتْ مِنْ خَلْفِهم ، ومَلأَت الزَّغَارِيدُ شَوَارِعَ المَدينةِ المحَاصَرَة ابْتِهاجًا بالنَّصْرِ الجديدِ .

غَادَرَ السُّلْطانُ البَحْرَ ثَائِرًا حانقًا سَاخطًا ، واسْتَدْعى القُبطانَ « بالطه » ، وصَرَخَ فى وَجْهِه واتَّهَمَه بالجُبْنِ ، فَرَدَّ « بالطه » : « لا يَهُمُّنى أَنْ أَمُوتَ ، أنا لا أَخَافُ الموْتَ ، لَكِنْ يُؤْلِمُنى أَنْ أَمُوتَ وأَنا مُتَّهمٌ بهذه التُّهْمَة القاسيَة . . . تُهْمَةِ الْجُبْنِ ، لَقَدْ قَاتَلْتُ أَنَا وجُنُودِى بِكُلِّ شَجَاعَةٍ » .

لَكِنَّ الْهَزِيمةَ كَانَ أَثَرُهَا قاسيًا عَلَى عَقْلِ الفَاتحِ ونَفْسِه ، فَعَاقَبَ « بالطه » بالْعَزْلِ عَنِ القِيادَة ؛ وأَصْبَحَ (حمزةُ باشا) هُوَ القُبطانَ الجديدَ .

وبِرَغْمِ هَذه الْهَزِيمَة وهَزِيمَة اقْتِحَامِ الأَسْوَارِ ، ظَلَّ « الفاتحُ » عَلَى ثِقَتِه بِجُنُودِه وزَادَ عِنَادًا وإِصْرَارًا عَلَى التَّقَدُّمِ ، وكَانَ لابُدَّ

مِنْ إيجادِ حَلٍّ لاقْتِحَامِ مياهِ الْقَرْنِ الذَّهبىِّ المغْلَقِ بالسِّلْسِلَةِ .
وبَعْدَ تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ اهْتَدَىَ الفَاتِحُ إلى خُطَّةٍ شبْهِ خيَالِيَّةٍ، وهِىَ أنْ يَنْقُلَ السُّفُنَ مِنْ مَكانها بمياه البوسفور عَنْ طَرِيقِ الْبَرِّ إلى الْقَرْنِ الذَّهَبِىِّ وَهذه المسَافةُ تَبْلُغُ ثلاثةَ أمْيالٍ عَبْرَ طرِيقٍ غَيْرِ مُمَهَّدَةٍ - لَكِنَّ الْعُظَمَاءَ لا يَعْرِفونَ الْمُسْتحِيلَ - .

وَبَدأَ نَقْلُ السُّفُنِ وَجرِّها عَلَى اليابسَةِ ، وتَمَّ تَمْهِيدُ الأَرْضِ بِسُرْعَةٍ ، وَوَضَعُوا عَلَى الأَرْضِ أَلْوَاحًا منَ الخَشَبِ المدْهُون بالزَّيْتِ والشَّحْمِ ؛ لِتَنْزَلِقَ عَلَيْها السُّفُنُ أَثْناءَ جَرِّها ، تَحْتَ حِمَايةِ قَذائفِ المدافِعِ - وتَدُلُّ هذه الفِكْرَةُ عَلَى قِراءَةِ « الفاتِحِ » الواسِعَةِ للتَّارِيخِ - .

وقَد اسْتَغْرَقَ تَنْفيذُ هَذه الفكْرَةِ الْعَبْقَرِيَّةِ يَوْمًا واحدًا فَقَطْ ، فَفِى الْيَوْمِ التَّالى أَصْبَحَتِ السُّفُنُ الْعُثْمانيَّةُ (التُّرْكية) - حوَالى (٧٠) سَفِينَةً - بالقُرْبِ مِنْ سُفُنِ الأَعْدَاءِ ، دَاخِلَ القَرْنِ الذَّهَبِىِّ بَعْدَ أَنْ تَخَطَّتْ حَاجِزَ السِّلْسِلَةِ ، وحكَى أَهْلُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ نُبَوءَةً تَقُولُ :

« سَتَسْقُطُ القُسْطَنْطِينِيَّةُ عِنْدَمَا تعُومُ السُّفُنُ عَلَى الْيَابِسَةِ » .

وطَلَبَ الإمْبراطُورُ مِنْ قائده البَحْرِىِّ « كُوكُو » ضَرْبَ سُفُنِ «الفَاتِحِ » وتَدْميرِها ، والَّذى حَدَثَ أَنْ سَفِينةَ « كوكو » نَفْسَهَا تمَّ ضَرْبُهَا ، فانْشَطَرَتْ إلى نِصْفَيْنِ .

وَدَارَتْ مَعَارِكُ بَحْرِيَّةٌ أُخْرَى انْتَصَرَتْ فيها سُفُنُ السُّلْطَان «الفَاتِحِ » ، وفَاضَتْ نَفسُ الإمبراطُور بالْغَيْظ والكَرَاهِيَة ، فَعَلَّقَ عَلَى أَسْوارِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ رءوسَ مائتَيْنِ وستِّينَ مِنْ أَسْرَى الْعُثْمانيِّينَ .

وتَابَعَ الجَيْشُ العُثْمانِىُّ ضَرْبَ الأَسْوارِ الحَصينَة ، وتَغْلغَلَ اليَأسُ فى نُفُوسِ الرُّومِ ، وحِينَ هَبَّتْ عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ تَشاءَمُوا وتَوقَّعُوا الهَزِيمَةَ الشَّامِلَةَ .

* * *

الأَشْبَاحُ

لَمْ يكْتَف الفَاتحُ بطَرِيقَة واحدَة للْهُجُوم ، فالضَّرْبُ فى أَكْثرَ منَ اتِّجاه هُوَ أَفْضَلُ وَسيلَة لتَشْتيت جُهْد العَدُوِّ وإرْباكه - فالسُّفُن تَضْربُ ، والمدَافعُ المنْصُوبَةُ علَى الأَرْضِ تَقْذفُ طَلَقَاتها، والمقاتلُونَ يُصَوِّبُون سهَامَهُم وحرَابَهُم منْ أَبْراجِ القَلْعَتين فى وَقْت واحد وبالتَّنْسيق بَيْنَهُمَا - وجُنُودٌ آخَرُونَ يَحْفُرُونَ أَنْفَاقًا تَحْتَ الأَرْضِ منْ تَحْت الأَسْوارِ إلى أَرْضِ (القُسْطَنْطينيَّة) ، وقَد احْتَاجَ ذَلكَ جُهْدًا خارقًا- وفُوجئَ أَهْلُ المَدينَة بطَرُقَات تَحْتَ أَقْدامهم وَمُقَاتلينَ يَخْرُجُونَ منْ تَحْت الأَرْضِ ، وأشَاعَ بَعْضُهُم أَنَّ أَشْباحًا تَخْرُجُ منْ تَحْت التُّرابِ فَعَمَّ سُكَّانَ المدينَة الْفَزَعُ والاضْطرَابُ ؛ وتَوَقَّعُوا ما بَيْنَ لَحْظَة وأُخْرَى أنَّ الأَرْضَ سَتَنْشَقُّ عن الجُنُود المسْلمينَ فى أَىِّ مَوْقعٍ يُوجَدُونَ فيه ، غَيْرَ أَنَّ « السُّلْطانَ » خَسرَ الكَثيرَ منَ الشُّهَداء، فَأَحْيَانًا تَنْهارُ عَلَيْهمُ الأَنْفَاقُ فى أثناء حَفْرِها ، أو يَسْتَقْبلُهُم جُنُودُ الرُّوم بالنَّفْط والنَّارِ الحارقَة أَوْ بالأَسْرِ والتَّعْذيبِ ، لَكنْ طُوبَى للشُّهَدَاءِ فَهُمْ مَوْعُودُونَ بالجَنَّة .

وَفَكَّرَ « الفَاتِحُ » فى طَرِيقَة مُبْتَكرَة لحَسْمِ المعارك ، وَهَدَاهُ اللهُ إلى فكْرَة لَمْ يَسْبِقْهُ إلَيْها أَحَدٌ ، وبَعْدَ أَنْ عَرَضَ الفِكْرَةَ عَلَى الْقَادَة سَأَلَهُم :

– هَذه الخُطَّةُ تَتطَلَّبُ سُرْعَةَ التَّنْفيذ قَبْلَ أَنْ يَنْتَبهَ الرُّومُ ، وقد يَتعَرَّضُ العُمالُ والجنُودُ لمخاطرَ قَاتلة ، فَمَا رَأْيُكُمْ ؟

وعَلَّقَ (حَمْزَةُ باشا) أحَدُ القَادَة قائلاً فى حَزْم :

– يا سَيِّدى لديْكَ رجالٌ وجُنُودٌ وعُمَّالٌ يَنْحتُونَ الصَّخْرَ بأَسْنَانهم حَتَّى تَعْلُوَ رَايَةُ الإسْلامِ ، تَوكَّلْ عَلَى الله ونَحْنُ مَعَكَ مُتَوكِّلُونَ .

– سَتَكُونُ بُطُولَةٌ خَارقةٌ إذا انْتَهيْنَا مِنْ هَذَا المشْرُوعِ فى خِلالِ يَوْمَيْنِ .

فَعَقَّبَ المهَنْدسُ (مُصْلحُ الدِّين) كَبيرُ المهَنْدسينَ :

– سَتَحْدُثُ المعْجزَةُ بمشيئَة الله فى أَقَلَّ مِنْ يَوْمَيْنِ .

وصَدَّقَ الآخَرُونَ عَلَى كَلامِ (مُصْلح الدِّينِ) فَقَالَ «الفاتِحُ»:

– عَلَى بَرَكَة اللهِ ، اعْمَلُوا واللهُ مَعكُم .

وَبدأَ الْعَمَلُ فى اللَّيْلِ ، وفى الصَّبَاحِ شَهَقَ العَدُوُّ ممَّا رآهُ ، فَقَد انْتصَبَتْ قَلْعَةٌ هائلَةٌ جَديدَةٌ فى مُوَاجَهَة أَسْوَارِهم ، وأَعْلَى منْها ارْتفاعًا، وقَدْ شُيِّدَت القَلْعَةُ منَ الخشَب المكْسُوِّ بالجلْد، والْجلْدُ مُبَلَّلٌ بالماءِ حتَّى لا يَتَأَثَّرَ بنَيرانِ الرُّومِ . وقَالَ خُبَراءُ الرُّومِ :

« لَو اجْتَمَعَ كُلُّ أَهْلِ (الْقُسْطَنْطينيَّة) ليُقيمُوا مثْلَ هَذه القَلْعَـة عَلَى مَدَى شَهْرٍ لما استْطَاعُوا ، وقَدْ صَنَعَها المسْلمونَ الأَتْرَاكُ فى أَقَلَّ منْ أرْبَعِ سَاعَاتٍ !!

إِنَّهُ حَصَادُ الخُطَّة العَبْقَرِيَّة - والْهمَمِ العَاليَة والجنُودِ والصُّنَّاعِ المؤْمنينَ بالله ، فَكُلُّهُم يَعْمَلُونَ ابْتغَاءَ مَرْضَاة الله .

وركَّزَ العَدُوُّ ضَرَبَاته ضدَّ القَلْعَة الخَشَبيَّة ورجَالها ، ودَارَتْ مَعَارِكُ شَرِسَةٌ تَمَّ فيها تَدْميرُ أَجْزاءٍ منْ أَسْوارِ المدينَة ورَدْمِ الخَنْدَقِ وهَدْمِ أَرْبَعَة أَبْرَاجٍ .

وأَخيرًا اشْتَعَلَت النِّيرانُ فى الْقَلْعَة الخَشَبيَّة فاسْتَحَالَتْ رَمَادًا ، وَعنْدَئذٍ قَالَ « الفاتِحُ » :

« غدًا نَصْنَعُ أَرْبَعَ قلاعٍ أُخْرَى » .

❊ ❊ ❊

النَّجْدَةُ

لَمْ يَهْدإِ الْقِتَالُ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ - فى كُلِّ المواقِعِ - وكَالْعَادَةِ أَرْسَلَ إِمْبراطُورُ الرُّومِ صَرَخَاتِ الاسْتغَاثَةِ إلى أُوربَّا يَطْلُبُ المزيدَ ، لَكِنَّهُم لَمْ يُمِدُّوهُ بالمدَدِ الكَافِى ، وشَاعَ الفَقْرُ والخَوْفُ بَيْنَ سُكَّانِ المدينَةِ ، حَتَّى الأَثْرياءُ بَخلُوا بأَمْوالِهِمْ عَلَى وَطَنِهِمْ فَخَبَّأُوهَا وصَارَتْ فِيمَا بَعْدُ غَنِيمةً وكَسْبًا لِلْعُثْمانيِّينَ .

وشَعَرَ الإمبراطورُ بالمأزقِ وبالمصيرِ المظْلِمِ الَّذِى يَنْتَظِرُهُ هُوَ وشَعْبَهُ ، ونَصَحَهُ بَعْضُ أَصْدقائه بالابْتعادِ عَنِ المدينَةِ وإدَارَةِ الْحَرْبِ من خارِجَها ، لَكِنَّهُ رَفَضَ وأَصَرَّ عَلَى البَقاءِ بَيْنَ شَعْبِه حَتَّى الموْتِ .

وَبِدَافِعٍ مِنَ التَّوتُّرِ والْخوْف ، وَطَلَبًا للسَّلامَةِ والأَمانِ هَرَبَ بعضُ سُكَّانِ المدينَةِ وسَلَّموا أَنْفُسَهُمْ لِسُلْطانِ المسْلمينَ فَأَحْسَنَ اسْتِقْبَالَهُمْ، ومنْ هَؤُلاءِ الرَّاهِبِ الرُّوميِّ (بترو) هُوَ وثَلاث مائة منْ أَصْحَابِه ، وَلاقَوْا تَرْحَابًا شَدِيدًا مِنَ المسْلمينَ ، فَأَعْلَنَ (بترو) إسلامَهُ لِيُصْبِحَ اسمُهُ (مُحَمَّد بِتْرُو)، وعَمِلَ فى صفُوفِ المسلمينَ .

وأرادَ الإمبراطورُ البيزَنْطِيُّ (قُسْطَنْطِينُ) أَنْ يَبْعَثَ النَّارَ فى الرَّمادِ ، ويَمْسَحَ الْيَأْسَ مِنَ الْقُلُوبِ ، فَخَطَبَ الْخُطَبَ الْحَمَاسِيَّةَ فى النَّاسِ والجنُودِ ، وقَالَ فى آخِرِ خُطْبَةٍ له:

« أعدُّوا أَنْفُسَكُمْ للْقتالِ والتَّضْحيَةِ مِنْ أَجْلِ هذهِ الْبَلْدَةِ المقدَّسَةِ وفى سَبيلِ النَّصْرَانيَّةِ » .

ثُمَّ أَمْسَكَ بِمقْبَضِ سَيْفهِ الذَّهَبِىِّ وتَابَعَ قَوْلَهُ :

« إنَّ السَّاعَةَ الفَاصلَةَ قدْ حَانَتْ أَيُّها الإِخْوَانُ ، إنَّكُمْ سُلالَةُ أَبْطالٍ وعظماءِ (أثينا ورُوما) فَكُونُوا أَهْلاً لِهَذا النَّسَبِ الرَّفِيعِ ».

كَانَتْ هَذِهِ الخُطْبَةُ فى كَنِيسةِ (أيَا صُوفْيَا) الَّتى تَحَوَّلَتْ إِلى مَسْجِدٍ .

وأَغْلَقَ (قُسْطَنْطِينُ) جَمِيعَ أَبْوابِ السُّورِ المؤَدِّى إِلى دَاخلِ المدِينَةِ حَتَّى لا يَفرَّ جُنُودُهُ مِنَ الأَسْـوارِ إِلى المدينةِ فَإِمَّا النَّصْـرُ أَوِ الموْتُ .

* * *

الْهُجُومُ الشَّامِلُ

مَضَى نَحْوُ خَمْسينَ يَوْمًا مِنَ الْقِتَالِ البُطُولِىِّ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنْ ، وَقَرَّرَ « الْفَاتِحُ » أَنْ يَحْسِمَ هَذَا الْحِصَارَ بِفَتْحِ المدينَةِ ، ووافَقَهُ القَادَةُ والجنُودُ عَلَى قَرارِهِ ، وعَلَتْ هُتافاتُ الجنُودِ فى مُعَسْكَرَاتِهِمْ صَادِقةً مُدَوِّيَةً فى صَوْتٍ واحِدٍ : اللهُ أكبرُ .

وقَالَ (زغنوسُ باشا) :

- لِتَكُنْ غَزْوَتُكَ مُباركَةً يا سُلْطانِى ، ولْيُسَدِّدِ اللهُ خُطانا جَميعًا .

وَمَرَّ « الفاتِحُ » عَلَى جُنُودِهِ فى مَوَاقِعِهِم ، وأَلْقَى فيهم الْخُطَبَ وتابَعَ بِنَفْسِهِ الاستِعْدادات للمعَارِكِ الفَاصِلَةِ .

أَمَّا الوَزيرُ الحاقِدُ (خليلٌ باشا) فَرَفَضَ الهُجُومَ الشَّامِلَ ، ورَأَى أنَّه سيُثِيرُ (أُورِبَّا) كلَّهَا ضِدَّ الْعُثْمانيِّينَ .

فَقَالَ « الفاتِحُ » فى يَقِينٍ :

- أَوَ لَيْسَ لَنَا جَيْشٌ يُدَافِعُ عَنْ كَرَامَتِنا وشَرَفِنا ؟

وتَمَنَّى « الفَاتِحُ » أَنْ يَخْضَعَ (قُسطَنْطِينُ) ويُسَلِّمَ المدينَةَ بدُون حَرْبٍ - حَتَّى آخرَ لَحْظة - مَنْعًا من سَفْك الدِّماءِ فى الجانبَيْن ، فَوَجَّهَ «الفاتحُ» إِنْذَارًا أَخيرًا للإمبرَاطُور يُطالبهُ فيه بتَسْليمِ المدينَة .

وَجَمَعَ الإمبراطورُ رجَالَهُ وقادَتَهُ وعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِنْذَارَ فَانْقَسَمَت الآراءُ ، ورَفَضَ القائدُ (جستنيانُ) التَّسْليمَ وانْحازَ إِلَيْهِ الإمبراطُورُ . وردَّ عَلَى « الفاتِحِ » رَدا مُخَادِعًا مُرَاوِغًا جَاءَ فيه :

« إِنَّنى أَشْكُرُ اللهَ إذَا وافَقَ السُّلْطانُ عَلَى السِّلْمِ ، وأَنا أَقْبَلُ أَنْ أَدْفَعَ الجِزْيَةَ ، أَمَّا القُسْطَنْطِينيَّةُ فَقَدْ أقْسَمْتُ أَنْ أُدافِعَ عَنْهَا إِلى آخرِ نَفَسٍ فى حياتِى » .

ولما بَلَغَ السُّلْطانَ الرَّدُّ قَالَ :

« حَسَنًا . . . عَنْ قَرِيبٍ سَيَكُونُ لِى فى القُسْطَنْطِينيَّةِ عَرْشٌ أَوْ يكُونُ لِى فيها قَبْرٌ » .

وَلَمْ يُضِعِ السُّلْطانُ « الفاتِحُ » وَقْتًا .

أَوْصَى « الفاتِحُ » الجَيْشَ كُلَّهُ بالصِّيامِ لمدَّةِ يَوْمٍ حَتَّى تَقْوَى النُّفُوسُ وتَتَطهَّرُ، ثُمَّ اجْتَمَعَ بِكِبارِ رِجَالِ الجَيْشِ وتحدَّثَ قائلاً :

- إذا تَمَّ فَتْحُ القُسْطَنْطينيَّة تَحقَّقَ فينا حَديثٌ مِنْ أَحاديث رَسُول الله - ﷺ - ومُعْجزَةٌ منْ مُعْجزاته ، وهُوَ الحَديثُ الشَّريفُ القَائلُ : « لتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطينيَّةُ ، فلَنعْمَ الأَميرُ أَميرُها ، ولَنعْمَ الْجَيْشُ ذَلكَ الْجَيْشُ » [1] وَسَيَكُونُ مِنْ حظِّنَا بإِذْن الله وبنَصْرٍ مِنْ عنْده ما أشَادَ به هَذَا الحديثُ مِنَ التَّمْجيد والتَّقْدير .

ثُمَّ قَالَ فى آخر حَديثه :

ويَجبُ عَلَى الجنُود أَنْ يَجْعَلَوا تَعَاليمَ ديننَا وشَريعَتنَا أَمَامَ أَعْيُنهمْ فَلا يَفْعلُونُ ما يَتَعارَضُ مَعَهَا ، وعَلَيْهمْ أَنْ يَتْرُكُوا القُسَسَ والضُّعفاءَ والْعَجزَةَ الَّذينَ لا يُقاتلُونَ» .

واستَبْشَرَ « الفَاتحُ » بنُزُول المطَر لَيْلَةَ الْهُجُوم الشَّامل كأَنَّهُ تَحيَّةٌ منَ السَّماء ، واصْطَحَبَ مَعَهُ الشَّيْخُ العالمُ الزَّاهدُ (رآق شَمْسُ الدِّين) الَّذى بَشَّرَهُ بفَتْح المدينَة ، وَبدَأَ مَشْهَدُ الهُجُوم المهيب بنيران المشَاعل ، وصَيْحات التَّكْبير ، ودقَّات الطُّبُول ، والموسيقَى العَسْكَريَّة ، وكَانَ الشُّيوخُ والْعُلَماءُ يُنْشُدونَ الأَذْكارَ ، وكُلُّ جُنْدىٌّ يَحْتَلُّ مَوْقعَهُ فى البرِّ والْبَحْر ويَعْرفُ دَوْرَهُ .

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم عن بشر الغنوى كما فى كنز العمال .

كَانَ ذَلكَ فى صبَاحِ الثُّلاثاء (٢٩) مايو (١٤٥٣) ميلادية - (٨٥٧) هجرية . حَيْثُ بَدَأَ الزَّحْفُ العظيمُ . . ورَكَّزَ « الفاتحُ» قُوَّاته باتِّجاه أَضْعَف أَبْواب أَسْوارِ المدينَة وهُوَ بَابُ القدِّيس (رومانوس) وتَجَوَّلَ « الفاتحُ » بحصانه « جمبولات » يُراقبُ سَيْرَ الحَرْب ويُشَجِّعُ الجنُودَ - لاَ تَهُزُّهُ قَذائفُ العَدُوِّ وسهَامُهُ الَّتى تَتَسَاقَطُ منْ حَوْله ، فَهُوَ يُؤْمنُ بالله وقَدَره ، ويَذْكُرُ خالدَ ابْنَ الوليد الَّذى مَاتَ عَلَى فراشه برَغْمِ الحروبِ الطَّويلَة الَّتى كَانَ فيها أَشْجَعَ المقاتلينَ وأَوَّلَ المقاتلينَ .

وَطَبَّقَ « الفاتحُ » خُطَطًا ماكرَةً مُتَغَيِّرةً ، أرْهَقَتْ (جستنيان) وجنودَهُ الأَشدَّاءَ ، إنَّ « الفَاتحَ » يَدْفَعُ إلى الموْقع الوَاحد أَكْثَرَ منْ مَجْمُوعَة مُقاتلَة عَلَى فَترات مُتَقَطِّعَة ، فَيَظُنُّ (جستنيانَ) فى كُلِّ مَرَّة أَنَّهُ انْتَصرَ وأَنَّ المقاتلينَ العثْمانيِّين لَنْ يَعُودُوا .

وكَانَتْ بشارة طَيِّبةً حينَ أُصيبَ (جستنيان) بجرَاحٍ فَانْسحَبَ منَ الميْدان ليَموتَ بَعيدًا ، واحْتَلَّ الإمبراطورُ مكانَهُ فى القيادَة ، واهْتَزَّ (قُسْطَنْطينُ) وجُنُودُهُ منْ بُطولات الفدائيِّينَ المسْلمينَ الَّتى فَاقَتْ كُلَّ البُطولاتِ، وفى مُقَدِّمَتهم الجُنْدىُّ الفدائىُّ «حسن طولو باتلى .

لَقَدْ تَسَلَّقَ (حَسَنٌ) وثَلاثُونَ مِنْ زُملائه أَسْوارَ القُسْطَنْطِينيَّة عَلَى سلالِمَ مِنَ الحبال ، ولَمْ تُرْهِبْهُمُ القَذَائفُ والسِّهامُ الَّتى أَمْطَرَهُم بِها العَدُوُّ مِنْ أَعْلَى الأَسْوار، واسْتُشْهِدَ (حَسَنٌ) وعَدَدٌ مِنْ زُمَلائه بَعْدَ أَنْ أَثْبَتوا أَنَّ تَسَلُّقَ هَذِهِ الأَسْوارِ لَيْسَ مُسْتحيلاً .

وتَوالَت المعاركُ حاميَةً وَحْشِيَّةً فى كُلِّ لَحْظَةٍ وفى كلِّ مَوْقِعٍ، واخْتَلَطَتْ مياهُ القَرْنِ الذَّهَبِىِّ بالدِّماءِ الحمْراء .

وبِفَضْلٍ مِنَ الله وتَوْفيقه لجنُود المسْلمينَ وإِخْلاصِهِم اخْتَرَقُوا الأَسْوارَ فى أَكْثَرَ مِنْ مكَانٍ وانْدَفَعُوا داخلَ المدينَة كَالسَّيْلِ وسَيْطَروا عَلَيْها وقُتِل (قُسْطَنْطِينُ) فى مَعارِكَ الفَتحِ المبارَك .

ورَفَعَ العُثْمانيُّونَ الأَعْلامَ عَلَى المدينَة ، وتَحَقَّقَ حُلْمُ أَجْدادِ «مُحَمَّدٍ الفاتِحِ »، وحُلْمُ المسلمينَ عَلَى مَدَى ثمانيَةِ قُرُونٍ .

ودَخَلَ السُّلْطانُ المنْتَصِرُ « الفاتحُ » الظَّافِرُ الشَّابُّ ابْنُ الثَّالثَة والعشْرينَ المدينَةَ ، وقَدْ سَقَطَتْ أَسْوارُها المنيعَةُ تَحْتَ أَقْدامه ، وأَصْبَحَ واحدًا مِنْ أَعْظَمِ الفاتِحينَ فى كُلِّ العُصُورِ ، وحَمَى بلادَهُ مِنَ اعْتداءات هذه المدينَةِ البيزنْطيَّة .

دَخَلَ « الفاتِحُ » المدينَةَ خَاشعًا - ولَيْسَ مُتَجَبِّرًا - وسَجَدَ عَلَى الأَرْض ، ووَضَعَ حفْنَةً منْ تُرابِهَا عَلَى رَأْسِه تَوَاضُعًا وشُكْرًا لله عَلَى النَّصْرِ . . . وكُلَّمَا هَنَّأَه أُحَدٌ قَالَ :

« حَمْدًا لله ، ليَرْحَمَ الشُّهداءَ ، ويَمْنَحَ المجاهدينَ الشَّرَفَ والمجْدَ ، ولِشَعْبِى الفَخْرَ والشُّكْرَ » .

وحينَ أَحْضَرُوا إليْه رَأْسَ (قُسْطَنْطين) - دُونَ أَنْ يَطْلُبَ - وَظَنُّوا أَنَّهُ يَفْرَحُ لمرآها تَأَلَّمَ ، وأَمَرَ بعقاب مَنْ شَوَّهَ رَأْسَ الإمبراطورِ ومَثَّلَ بها ، وطَلَبَ أَنْ تُدْفَنَ رَأْسُ الإمبراطورِ مَعَ اتِّخاذِ الإجْراءَاتِ المنَاسبَةِ الَّتى تَليقُ بمكَانَته ومَنْزِلَته .

وأَرْسَلَ « الفَاتِحُ » بِخَبَرِ النَّصرِ إلى كَافَّة الدُّولِ والشُّعوبِ الإسْلاميَّة ، فَفَرِحَ المسْلمونَ فى كُلِّ مكانٍ بالفَتْحِ العَظيمِ ، وفى مَدينَة القَاهرَة - وَغَيْرِها - أُقيمَت الاحْتِفَالاتُ وزُيِّنَت الشَّوارِعُ والمنازِلُ احْتِفالاً بهَذا النَّصْرِ الرَّائِعِ .

* * *

شُروقٌ وشُروق

أَفزَعَ فَتحُ القُسْطَنْطِينيَّةِ أُوربًّا ؛ فَجمَعُوا صفُوفَهم أَكثرَ منْ مرَّةٍ لمحَارَبة « مُحمَّد الفاتحِ » ، وأَفْلَحُوا فى تَنْظيمِ حمْلَة صَليبيَّةٍ ضدَّهُ بقيادَةِ القائد المجرىِّ « هونياد » - وبفَضْلٍ منَ الله هزَمهُ «الفاتحُ » ، وأَخْضعَ لسُلْطانه دُولَ الصِّرْبِ واليُونانِ والقرْمِ وجُزرَ الأَرْخبيل ودُولاً أُخْرَى .

وبَعْدَ حُرُوب مُتَلاحقَة استولَى عَلَى أَلْبانيا الَّتى كَانَ (اسكندرُ بك) قدْ استَقَلَّ بها فى عَهْد (مرادٍ الثانى) ، وهَا هُوَ «الفاتحُ» بَعْدَ أَكْثَرَ منْ عشْرينَ عامًا يُعيدُها إلى بلاد المسْلمينَ ؛ لتَنْعَمَ بنُورِ الإِسْلام - ومَاتَ (اسكندر بك) قَبْلَ المعْرَكَة الفاصلَة فَأَفْلَتَ منَ العقابِ .

وعَبَرَتْ جُيُوشُ الْعُثْمانيِّينَ الَّتى أَصبَحَتْ منْ أَقْوَى جُيُوشِ العالَمِ - البرَّ والبَحْرَ مُتَّجهَةً إلى إيطاليا ، واستَوْلَتْ عَلَى «أوترانتو » عَلَى الشَّاطِئِ الإيطالىِّ .

وسَمِعَ بابا رُوما عَنِ اسْتعْدادات الفَاتِح لغَزْو « روما » ، فَأعَدَّ لنَفْسه خُطَّةً للْفِرَارِ مِنَ المدِينَة هُوَ وعَدَدٍ مِنْ حُكَّامِهَا .

لَكِنْ . . .

لَكِنْ . . . غَابَ الْقَمَرُ المقَاتلُ العُثْمانىُّ المسْلمُ وَسْطَ أَحْزان المسْلمِينَ فى كُلِّ مكَان ، فَفِى لَيْلَة الجُمُعَة (٣/ ٥/ ١٤٨١) ميلادية - (٨٨٦) هجرية - وفى سنِّ الحَادِيَة والخَمْسِينَ - تُوُفِّىَ الفارِسُ (مُحَمَّدٌ الفاتِحُ) - وَسْطَ جَيْشِه - وأَحْلامُهُ فى فَتْحِ رُوما وأُوربَّا ملْءُ قَلْبِه .

وإذا كَانَ لكُلِّ شرُوق غرُوبٌ ، فَإِنَّ شرُوقَ العُظَمَاء لا غُرُوبَ لَهُ ، فَأَعْمَالُهُمْ مِنَ أَجْلِ الإِنْسانِ دَائِمَةُ الشُّرُوقِ ؛ وهُمْ دَائمًا يَسْطَعُونَ فى جَبِينِ التَّارِيخِ .

ولَمْ يكُن (مُحَمَّدٌ الفاتِحُ) فارِسًا عَظِيمًا فَحَسْب ، لَكنَّه أَيْضًا كَانَ مُؤَسس حَضَارَة ، وَرَجُلَ دَوْلة مِنَ الطِّرَازِ الأَوَّل ، وقَدْ نَظَّمَ إمبراطوريَّتَهُ تَنْظِيمًا رائعًا، وابْتَكَرَ أَنْظمَةً كَثيرةً فى إدَارة شئُون البِلاد ، لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً مِنْ قَبْلُ - والْتَزَمَ بالشُّورَى (الدِّيمقراطيَّة)، ورَفَعَ مَنْزِلَةَ القاضِى ، وجَعَلَ شعَارَ دَوْلَته «العَدْلُ والعِلْمُ » .

وفى عَهْده أنْشأَ جامعَةً علْميَّةً كُبْرى ، وانْتَشرَت المدارسُ والمعاهدُ ، وعُنِىَ فيها بتَعْليم الدِّين والأَخْلاق ، إلى جوَار عُلُومِ الحياة - كالطِّبِّ والطَّبيعَة والرِّياضيَّاتِ- ونَظَّمَ عَلاقات النَّاسِ عَلَى أَسَاسٍ مِنْ شَرِيعَة الإسْلامِ .

وأَحَسَّ النَّاسُ مِنَ الجنْسيَّات والأَدْيان الأُخْرى - فى ظِلِّ حُكْمه - بالأَمَان ، وأَخَذُوا حُقُوقَهُم كامِلَةً ، وعَاشُوا حَيَاةً أفْضَلَ مِنْ أَمْثَالِهِم فى (أوربَّا) .

ونَقَل « الفاتحُ » عاصمةَ البلاد إلى مَدينَة القُسْطَنْطينيَّة ، وأَصْبَحَتْ هِىَ المَلْجَأَ والمَأْوى للفارِّينَ مِنَ اضْطهاد الكَنيسَةِ والحكّام فى (أوربَّا) - حَيْثُ يَجدُونَ الأَمَانَ والرَّخاءَ فى ديارِ الإسْلامِ - وأصْبَحَ نِظَامُ « الفاتِحِ » وحُكْمُهُ هُوَ المثَلَ الأَعْلى لكُلِّ الشُّعوبِ، فَأَطْلَقوا عَلَيْه (فى أوربَّا) اسْمَ السَّيِّد العَظِيمِ .

ومَدينَةُ القُسْطَنْطينيَّة الآنَ هِىَ إحْدَى مُدُن تُرْكيَا الهَامَّة ، وأَصْبَحَ اسْمُهَا اسْطَنْبول- وأَصْلُها إسلامبول أَىْ عَاصِمة الإسْلامِ.

ومَا أَجْمَلَ وأَرْوَعَ الوَصِيَّةَ الأَخِيرَةَ الَّتى أَوْصَى بها (مُحَمَّدٌ

الفاتحُ) ابْنَه وخَلِيفَتَهُ فى الحُكْمِ - فَفِيها فَائدَةٌ لكُلِّ مُسْلِم - لَقَدْ أَوصَاهُ بِالعَدْلِ والقَنَاعَةِ ، وتَشْجِيعِ العُلَمَاءِ، ورِعَايةِ الفُقَرَاءِ ، كَمَا قَالَ لَهُ أَيْضًا :

« اعْمَلْ عَلَى نَشْرِ الدِّينِ الإسْلامِىِّ ، فَهَذَا هُوَ واجِبُ الملوكِ عَلَى الأَرْضِ ، وخُذْ مِنّى العِبْرَةَ :

لَقَدْ حَضَرْتُ هَذه البلادَ كَنَمْلَة صَغيرَةٍ ، فَأَعْطانى اللهُ تَعَالَى هَذه النِّعَمَ الجليلَةَ؛ فاتَّبِعْ خُطَاىَ ، ولا تَصْرِفْ أَموَالَ الدَّوْلَةِ فى تَرَفٍ أَوْ لَهْوٍ ، فَإِنّ ذَلكَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبابِ الْهَلاكِ » .

وَالدُكَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ

رَحِمَه اللهُ وجَازاهُ خَيْرًا بِمَا قَدَّمَ مِنْ نَصْرٍ وخَيْرٍ للإِسْلامِ والمسْلِمينَ . . . آمين .

تَمَّ بِحَمْدِ الله

* * *

أهم المراجع

١ - الدكتور محمد مصطفى صفوت :

السلطان محمد الفاتح : دار الفكر العربى - القاهرة (١٩٤٨م) .

٢ - الدكتور سالم الرشيدى :

محمد الفاتح : مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة (١٩٥٦م) .

٣ - إدوارد جيبون :

اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها : الهيئة العامة للكتاب (١٩٦٩م).

٤ - الدكتور عبد السلام فهمى :

السلطان محمد الفاتح : دار العلم - بيروت (١٩٧٥م) .

* * *

الفهرس

* * *

للمؤلف

- النزهة بين شرائح اللهب : شعر (١٩٧٣م) الهيئة العامة للكتاب .
- القلب والوطن : شعر - الهيئة العامة للكتاب .
- الحلم المعاند : شعر - اتحاد الكتاب .
- صلاح عبد الصبور : دراسة - الهيئة العامة للكتاب .
- صانعة الإشعاع : قصة شعرية للأطفال - الهيئة العامة للكتاب .
- البذور الغامضة : قصة شعرية للأطفال - دار سفير .
- خالد بين الأخطار : قصة شعرية للأطفال : دار سفير .
- العصفورة تغنى : شعر للأطفال - دار جهاد .
- قالت الشجرة الجميلة : شعر للأطفال - دار جهاد .
- العش الجديد : قصص للأطفال - دار جهاد .
- قاهر الفرس : قصة تاريخية للناشئين - مكتبة ومطبعة الغد .
- أحمد بن طولون : قصة تاريخية للناشئين - مكتبة ومطبعة الغد .
- سبحان الله تأملات (١) للأطفال - المختار الإسلامي .
- سبحان الله تأملات (٢) للأطفال - المختار الإسلامى .
- تسالى الليالى (٢) جزء للأطفال - مكتبة ابن سينا .
- تسالى الليالى (٥) جزء للأطفال - المختار الإسلامى .
- النبى مبشراً ﷺ - المختار الإسلامى .
- النبى زوجًا ﷺ - المختار الإسلامى .
- النبى باسمًا ﷺ - المختار الإسلامى .
- النبى رحيمًا ﷺ - مكتبة ومطبعة الغد .
- معجزة النمل - مكتبة ومطبعة الغد .